أنيس منصور





Sat.
6/8/2011
Riyadh

القلب لا يمتلئ بالذهب

من العرافين من يتحدثون عن الأبراج والحظ. يتكلمون كأنهم يخطبون في برلمان النجوم والكواكب؛ لذلك يشعر القارئ أنهم لا يتحدثون إليه وإنما اتخذوا لهم منابر فوق القمر وراحوا يخاطبون سكان الكواكب الأخرى.

وعرافون آخرون يتجهون مباشرة إلى قلبك وإلى جيبك. إلى الحب والفلوس وكيف تلتقي أو تبعد الفلوس عن قلبك .

إن العرافين يطلبون إليك أن تسمع كلام العقل؛ فيدخل كلامهم من هذه الأذن ليخرج من الأخرى!!

إذن تسمع كلام من؟ كلام القلب .

أمسكت ورقة وقلمًا وكتبت ما ينصح به العرافون الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون والألمان. وجدتهم يؤكدون أن غدًا أفضل من اليوم ولكني لم أستفد شيئًا سوى أنني أمضيت ساعة من الوقت أبعدتني عن كل ما هو هام في حياتي .





أنيس منصور

القلب لا يمتلئ بالذهب!



العنوان:

القلب لا يمتلئ بالذهب!

تأليف:

أنيس منصـور

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 9-1814-14-977
رقم الإيداع: 2007 / 9202
الطبعة الثالثة: يناير 2010



تليفـون : 33466434 - 33472864 02
فاكـس : 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

يا ذا الذي زار وما زار؟

كيف كانوا يسمعون الموسيقى والغناء وماذا كان يجري لهم ويجري عليهم، أنقل لك بعض العبارات من كتاب «الأغاني» ومن كتاب «الإمتاع والمؤانسة».

كانوا يضربون الأرض ويتمرغون في التراب. كان الواحد تتقلب عيناه ويسقط مغشيًا عليه، وهات الكافور وماء الورد. وإذا راقبتهم، وجدت الجيب مشقوقًا محروقًا والدمع منهمرًا والبال منخذلاً.

وإذا المطربة تدللت وتفتلت (أي تلوت) وتكسرت وتيسرت، هنا يكون الموت أقوى من الحياة.

ومن أجمل التعبيرات في كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، وهو تحفة «أبو حيان التوحيدي»، وصفه للموسيقى والغناء فيقول: إن الصوت الجميل يسرقك منك ويردك إليك.

ومن المجتمعين من يرغي ويزبد ويخمش بظفر ويركل برجله ويلطم وجهه ألف لطمة.

فالموسيقى:

نأخذها تارة وتأخذنا

فنحن فرسانها وصرعاها

ويوما فكرت في الكتابة عن غوازي وراقصات ومطربات شارع محمد علي بالقاهرة حيث عاشت الموسيقى الشرقية والمصرية القديمة، لقد أسعدني هذا الجو الساحر واستسلمت له تمامًا، فكنت أجلس على الأرض وأمدد ساقي وأقول كما يقولون. منتهى الراحة والسعادة.

يا سلام إذا غنت (ف..) شعرًا قديمًا وتثنت وتكسرت فكنت أمسك جاري حتى لا يخلع كل ملابسه ولم يكن جاري هذا إلا أديبًا عظيمًا.

تقول: (ف):

يا ذا الذي زار وما زارا
كأنه مقتبس نارا

قام بباب الدار من زهوه
ما ضره لو دخل الدارا

لو دخل الدار فكلمته
لحاجتي ما دخل النارا

نفسي فداه اليوم من زائر
ما حل حتى قيل قد سارا

وما زارا وما زارا وما زارا

يمكنك أن تتخيل حال شبان في العشرينات!

آخر ملوك مصر

مصر ظلمت اثنين من حكامها: آخر ملوكها فاروق.. وأول رئيس لها: محمد نجيب.. وكان الظلم فادحًا.. أما ظلم الملك فاروق فقد تولته الصحافة بمنتهى القسوة والشراسة. ونسبوا إليه ما ليس فيه. تبريرًا للثورة عليه.. أو منافقة للثوار.

أما ظلم الرئيس محمد نجيب فقد تولاه وحده وبمنتهى الوحشية: الرئيس جمال عبد الناصر.

وشعرت بالعطف على فاروق وأولاده– مع أنني لا كنت غنيًّا ولا رأسماليًّا ولا إقطاعيًّا. وإنما أنا واحد من أبناء الطبقة الوسطى، وقد بهرتني الأبهة الملكية في مصر وفي أوروبا.. ولم تبهرني الفوضى والتبذل والاستهانة بالقيم وإثارة الأحقاد وكراهية كل ما كان.. فقد رسخت الثورة المصرية في نفوس الناس: أن كل غني لص، وكل ناجح غشاش.. وأن الأغنياء والناجحين: لصوص لأرزاق الشعب.

وعندما كنت في طريقي إلى أوروبا قامت الثورة المصرية. ولم نعرف معنى الثورة. ولكنها قامت وألقت بالملك في سفينة في البحر

ليخرج بلا عودة. يعني إيه؟ لقد أغرقتنا الدهشة فلم نتساءل كيف ومتى ولماذا؟ وفي جزيرة كابري رأيت الملك فاروق – الملك السابق. فاروق الأول والأخير. وإن لم يكن الأخير فقد جعلوا ابنه أحمد فؤاد ملكًا على مصر وجعلوا عليه وصاية. وكما عينوه ملكًا وهو لا يدري، أسقطوه أيضًا وهو لا يدري!

وتابعت ما تنشره الصحف الإيطالية عن الملك من غراميات وفضائح. وأكثرها ليس صحيحًا.

ونشرت صحف مصر أنه كان لا يفيق من الخمر. وعرفت من زوجته الملكة فريدة أنه لم يذق الخمر، لا إيمانًا، وإنما كراهية لرائحتها.. وعرفت من ابنه الأمير أحمد فؤاد عندما لاحظت أنه يسرف في التدخين فقال: أنا كوالدي لا أشرب الخمر.

وقالوا إنه مصاب بمرض السرقة. وإن الحاشية كانت كذلك تهيئ له السرقة بأن يترك الباشوات ولاعاتهم الذهبية المرصعة بالماس ليسرقها. وليس هذا صحيحًا.. وقالوا إن لكل كباريه في مصر بابًا سريًا لدخول وخروج الملك. وسألت الراقصة سامية جمال فأقسمت على المصحف أنه لم يكن لها بالملك أية علاقة، وإن كانت تتمنى ذلك مثل ألوف الفتيات!

وعرفت من قريب لي طبيب أمراض نساء كان يعالج الفنانة كاميليا أنه كان عندها مرض نسائي يمنعها –في السنوات الثلاث الأخيرة من حياتها– أن تكون لها صلة غرامية بالملك أو بغيره!

ولم تتمكن الملكة فريدة بسبب مرضها أن نجلس معًا لأكتب مذكراتها.. وعرفت بناتها.. وفي الأسبوع الماضي كنت أتحدث إلى ابنتها فريال وأسألها عن أختها فوزية. فقالت: فوزية كويسة أنا مريضة وعندي سرطان وعاجزة عن الحركة.

وماتت فوزية بعدها بدقائق. واتصلت الأميرة فريال بالسيدة سوزان مبارك. فيسرت نقل جثمان الأميرة والجنازة وسفر وإقامة الأمير أحمد فؤاد على نفقة الدولة. فهم جميعًا مصريون.

وكانت قلوبنا على الجانب الأيسر!

ترل.. لا.. لا.. لا.. عندما كنت أسمعها مع الصاجات والطبول والرقص في الفصل الثاني من (أوبرا كارمن) للموسيقار بيزيه أجد أنه من الصعب أن أبقى في مكاني وإنما فجأة أجدني أنا أيضًا تحولت إلى كل هذه الأدوات التي يدقونها ويعزفونها. مع أن الكلمات التي تغنيها المطربة لا هي جميلة ولا هي رقيقة وإنما الموسيقى تسحقني أو تستخف بي.. فلا وقار ولا إحساس بالآخرين، وإنما أنا انسحبت لدواعي الحب والخوف والكبرياء. كيف؟ لا أعرف. ولم أكن أجد في شيء من ذلك غرابة، كلام له وقع جميل. فكيف لا تنتقل عدواه إلى مشاعري وكيف لا أساعد مشاعري على الظهور وعلى الحركة.

ورغم أن الناس عادة لا يتحركون في المسارح، وإذا تحركوا فقليلا؛ لأنهم يخفون مشاعرهم في انضباط عام، هذا الانضباط هو تحيات مباركات محترمات للموسيقى والغناء.

وفي يوم قررنا أن نسمع (أوبرا كارمن) في بيت الفنان الكبير صلاح طاهر. جلسنا على المقاعد. وفجأة انزلقنا إلى الأرض. ثم بدأنا نتخفف من الجاكتات ومن الأحذية ومن الكرافتات، إنها نفس الموسيقى، ولكن ليس نفس المكان، وإنما كنا أكثر حرية، وبعضنا قال: الله.. الله.

وفي يوم دعانا الأديب إبراهيم زكي خورشيد الذي ترجم (دائرة المعارف الإسلامية) وأمسك العود، أما صوته فيشبه صوت الشيخ زكريا أحمد: خشن ولكنه منضبط، ثم إنه هو الذي يعزف على العود، وكان أمامه المطرب إبراهيم الحجار، أما الأغنية فهي: أنا هويت وانتهيت لسيد درويش. الله يا أستاذ.. الله. وتقلبت بين المقاعد، وبين جوانب الغرفة وأرضيتها، ونقول: الله. فقد أسحقنا الطرب– كما يقول أمير الشعراء شوقي.

وفي يوم دعتنا أم كلثوم للغداء.. وأسمعتنا تسجيلاً جديدًا لأغنية. يا اللي كان يشجيك أنيني. وكنا ستة من دارسي الفلسفة والفيزياء والشريعة، وكلنا نقول في نفس واحد: الله.. يا ست.. الله.. يا ست.. حتجنن يا ست.

وتضايقت أم كلثوم من إعجابنا بها على طريقتنا فتركت لنا المكان وأغلقت الباب، وراح أستاذ الشريعة يغني معها وواحد آخر يرقص على موسيقاها.

وبعد أن انتهت الأغنية خرجنا سعداء نبحث عن الست أم كلثوم فعرفنا أنها تركت لنا البيت: الله عليك يا ست حاضرة أو غائبة سواء كان فيه غداء أو أنها غيرت رأيها.

وقد غيرت رأيها.

وفي تلك الأيام كانت قلوبنا على الجانب الأيسر.

جنازة لساق الرئيس

فـي الأسبـوع الماضـي كـانت أغـرب جنـازة فـي الـقـرن الحـادي والـعشريـن: أديب أمـريـكي انتحر وأوصى بـأن تكون جنـازتـه زفـة بـالموسيقى والطبول والألعاب النـاريـة وذر لرمـاده المحترق، وقد تكفل بهذه الجنازة بطل الفيلم الذي كتب قصته، هذا الأديب الأمريكي اسمه هنتر تومسون، ولم يقل لنا الأديب الأمريكي في وصيته لماذا الفرح بانتحاره ولماذا أنهى حياته بالرصاص وزفها بالصواريخ!

وأعجب جنازة في القرن العشرين عندما ماتت الكلبة (لايكا) في الفضاء، فكانت سفينة الفضاء هي النعش الذي يدور حول المشيعين مرة كل تسع وثمانين دقيقة وبسرعة خمسة وعشرين ألف كيلو متر في الساعة، الناس واقفون والنعش يدور حولهم، حول المعجبين بالعبقرية الروسية وحول المحتجين على القسوة على الحيوان. إنها جنازة حارة والميت كلبة – ولكن أية كلبة!

أما أعجب جنازة في القرن التاسع عشر فهي الجنازة التي أقامها أنصـار الـرئـيس المكسيـكي أنطونيو لوبيز وسانتا آنا، فالرئيس المكسيكي كان قائدًا للقوات المنتصرة على الفرنسيين، وفي هذه الحرب فقد إحدى ساقيه سنة 1838 ووضع هذه الساق في الخمر حتى

لا تتعفن تمامًا كما وضع الإنجليز جثمان الأميرال نلسون عندما قتل في الحرب حتى لا تتعفن قبل وصولها إلى لندن.

وفي يوم الكريسماس سنة 1844 قام أنصار الرئيس المكسيكي بإقامة جنازة فخمة، أما الذي استقر في النعش فهي ساق الرئيس أنطونيو التي دفنت بعد ذلك، وسرقت بعد سنتين وأعادوها إلى مكانها. ولما توفي الرئيس المكسيكي بعد ذلك بثلاثين عامًا، فقيرًا مهجورًا أعمى دفنوه، وبحثوا عن ساقه فلم يجدوها، ومع ذلك فساقه كانت أسعد حالاً منه، فلا طردوها ولا سجنوها ولا حكموا عليها بالإعدام ولا أشفقوا عليها بعد ذلك فتركوها تموت، أحط وأحقر ميتة!

رأيتهم يكتبون

أستاذنا عباس العقاد كان يكتب على ورق في مساحة الكف. بالأحمر والأخضر. أما الخط فهو فارسي ومن النادر أن نجده قد شطب كلمة.

أستاذنا توفيق الحكيم كان يكتب على ورق صغير وبخط رفيع خفيف كأنه يطير فوق الصفحات أو كأنه يكتب برمش العين.

الأستاذ إحسان عبد القدوس يكتب على ورق صغير ويكتب من أول الصفحة إلى آخرها وفي السطر الواحد ثلاثون كلمة أو أربعون كلمة!

الأستاذ محمد زكي عبد القادر يكتب على ورق في مساحة الكف ويملأ نصف الصفحة ليكون مقالاً طويلاً، ففي السطر الواحد أربعون أو خمسون كلمة!

والأديب الكبير أحمد حسن الزيات حروفه أنيقة واضحة ولكن الحروف صغيرة جدًا.

وعندما سلمني الفنان الكبير يوسف وهبي مذكراته التي عنوانها (عشت ألف عام) كانت الصفحات بلا أرقام وكان خطه صغيرًا جدًا، فيوسف وهبي يظهر أنه كتبها في عام وراح يعيد ترتيبها في بقية الألف سنة!

والأديب الفرنسي الكبير هيجو إذا قرأت الصفحات التي يكتبها تحس أنها معركة ضخمة بين الكلمات والسطور فهي كلها تتزاحم وتتخبط ويشير الكاتب إليها في الهوامش.

والأديب سرفانتس بعد أن فقد ذراعه اليمنى في إحدى المعارك كان يكتب باليسرى وكان خطه مفعوصًا بعضه في بعض.

أما الأديب الفرنسي فلوبير فله طقوس فخمة في الكتابة، أولاً يرتدي ملابسه الأنيقة، ويضيء كل المصابيح في القصر، بما في ذلك الحديقة حتى يظن الناس أنه أقام وليمة، وتكون المفاجأة أن أحدًا لم يأت وإنما الأديب يحتفي بنفسه.

شاعرنا العظيم شوقي كان يكتب على أي نوع من الورق، وأحيانًا على علب السجائر وعلب الكبريت، ويقال إنه راح يدور في غرفة أحد أصدقائه يبحث عن ورقة ويسألونه فلا يرد وأخيرًا وجد ورقة صغيرة كتب عليها هذا البيت ربما لأبي نواس:

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى

لعل الذي لم يعرف الحب يعرف

ولم يجد ورقة فكتب على بطن يده اليسري:

(يقول أناس لو وصفت لنا الهوى

لعل الذي لم يعرف الحب يعرف

فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقته

(فوالله ما أدري الهوى كيف يوصف)

مات الأتراك وعاش الكرواسان!

عندنا في مصر الكحك والغريبة والبسكويت، ونقول إنها بدع أدخلها الفاطميون إلى مصر، وبقيت كما هي متربعة على عرش العيد الصغير، أما العيد الكبير فلحوم الخراف.

ومن الغريب أنني عندما ذهبت إلى جزيرة سيلان (سري لانكا) سنة 1959 أبحث عن الذي حدث للزعيم المصري أحمد عرابي باشا في منفاه الذي استغرق عشرين عامًا، وجدته قد علمهم نوعين من الحلوى من مخلفات الفاطميين في مصر: الكنافة والقطايف إلى جانب حرصه على تعليمهم مبادئ الإسلام واللغة العربية وارتداء الطربوش التركي.

والحلوى (أم علي) لها قصة معروفة، فبعد أن قتلت (شجرة الدر) زوجها مستخدمة القباقيب، جاءت زوجته الأولى وقتلت شجرة الدر بنفس الطريقة. وابتهاجًا بهذا اليوم صنعت الثريد المعروف بـ«أم علي» مضافًا إليه اللبن والسكر والزبيب.. والزبيب بدلا من ثديي شجرة الدر.. والملكة التي قتلت شجرة الدر اسمها أم علي.

وكذلك الكرواسان هو الخبز اللذيذ الجميل في كل الدنيا وفي فرنسا ألذ وأمتع. وكرواسان باللغة الفرنسية معناها: الهلال..

وبالإنجليزية: كرسنت وبالألمانية كرتنست، وله حكاية. فعندما احتل الأتراك فيينا سنة 1683، طبعًا ضاقوا بالحكم العثماني والقسوة والتعذيب فصنعوا خبزًا على شكل هلال، والهلال موجود في العلم التركي، وكانوا يدخلونه النار ألوف المرات في اليوم، والشعب النمساوي سعيد بهذا التعذيب الوهمي كل يوم.

ولم يلحظ الأتراك هذه المحرقة اليومية لهم وللهلال الذي يرمز للعلم وللسيطرة العثمانية.

وانسحبت الجيوش العثمانية وانحسرت وانكسرت وبقي الكرواسان لذيذًا، وانتقل إلى أميركا. ولأن فرنسا قد تفوقت في صناعته فاحتفظ بالاسم الفرنسي في أوروبا وأميركا وبقية القارات وليس بالاسم الألماني الذي ولد به.

ذهب الفاطميون وبقيت حلوياتهم، ومات الأتراك وعاش الكرواسان!

أيها الجنود «لا تتروملوا»!

كنت أحد الذين استقبلوا ساحر الكرة البرازيلي بيليه، 65 سنة، عندما دعته «أخبار اليوم» إلى اللعب في مصر. وكانت كل محاولة لمعرفة سر هذا الشاب لا معنى لها، فلا طوله ولا عرضه ولا لونه ولا مشيته كأنه أعرج، لا شيء من ذلك، فبراعته في مخه، ولما قلت له اخلع نعليك وأرني قدميك، لم أجد شيئًا غير عادي، وحاولت أن أقرأ باطن القدم، لا شيء!

وكانت الدعاية الهائلة له، قبل أن يجيء، كافية لتحطيم معنويات أي أحد، ولم نتوقف عن الطبل والزمر، ونسينا أن انتصاره هزيمة لنا، ونسينا أنه من الضروري أن نحترم أنفسنا، نسينا، وقد هزمنا طبعًا، وكنا سعداء بذلك؛ لأنه لم يكن في حسابنا لحظة واحدة أن ننتصر عليه.

فكأنه قد هزمنا قبل أن ننهزم، هزمنا قبل المباراة ثم مرة أخرى أثناءها!

وهناك عبارة للزعيم السياسي تشرشل: أن في الحرب نوعين من الرصاص: الرصاص الذي نعرفه والرصاص الورقي، أي أوراق الدعاية، وأن هذه الدعاية هي رصاص أقوى من الرصاص! فنحن إذن انهزمنا مرتين: مرة بالقدم ومرة بالورق!

وأذكر أنني عندما كنت أترجم «مذكرات رومل» في جريدة «الأهرام» سنة 1950 وجدت خطابًا للجنرال البريطاني كلود أوخنلك وجهه لقواته في منطقة العلمين، قال لهم ما يمكن ترجمته: «لا تترومِلوا».

أي لا يبهركم رومل، حتى لا نكون من جنوده ضدنا، لا تساعدوه على أن يهزمنا، لا تنبهروا بانتصاراته، لا تكونوا معه علينا.

فقد كان الجنود مبهورين بثعلب الصحراء رومل، وهذا الانبهار يجعلهم لا شعوريًّا يتمنون له استمرار النصر وينسون أن ذلك النصر عليهم.

وكان الجنرال أوخنلك لا يمل تكرار هذا المنشور، يحذرهم من الوقوع في سحر الإعجاب برومل.

وكانت انتصارات رومل الباهرة وبالاً عليه، فقد أثارت حقد القادة في ألمانيا، فلم يساعدوه في الحرب ضد الحلفاء وتركوه يقوم بأعظم انسحاب في التاريخ، واستدرجوه إلى أوروبا.

وضاق بهم رومل، فادعوا اشتراكه في مؤامرة على هتلر، فأمره الأخير بالانتحار، فعاش بذكائه ومات بهذا الذكاء أيضًا. وذكاء المرء محسوب عليه، أو محسود عليه!

أيهما تحب: سقراط أو روتشيلد؟

المثل الشعبي المصري يقول: المال زينه، والفقر ريحته تئذينا.

والمثل يقول: البخل خير من سؤال البخيل.

والمثل الأطول يقول:

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مالُ
ومن لا عنده مالُ فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس منفضة إلى من عنده فضة
ومن لا عنده فضة فعنه الناس منفضة
رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهبُ
ومن لا عنده ذهبُ فعنه الناس قد ذهبوا

والمثل يقول: تريد أن تعرف قيمة الفلوس عند الله، انظر إلى من أعطاها.

والمثل يقول: تريد أن تعرف قيمة الفلوس اسأل رجلاً بخيلاً! عندما نزل موسى عليه السلام من الجبل، وجد أهله يعبدون الذهب، أحسن وأعظم اختيار يدل على قوة الفلوس وهوان الإنسان!

ومثل يقول: أنت تساوي بالضبط ما في جيبك.

مثل يقول: الحديد يذوب أمام ثلاثة: الفلوس والجنس والسلطة!

وأروع ما قال شاعر، ما قاله أمير الصعاليك: عروة بن الورد:

ذريـــنـــي لـــلـــغـــنـــى أســـعـــى فـــإنـــي
رأيت الـــنـــاس شـــرهـــم الـــفـــقيرُ
وأبـــغضـــهـــم وأهـــونـــهـــم عـــلـــيـــهـــم
وإن أمســـــــى لـــــــه حسب وفيرُ
ويـــقصـــيـــه الـــنَّـــدى وتـــزدريـــه
حـــلـــيـــلـــتـــه ويـــنـــهـــره الصـــغيرُ
وتـــلـــقـــى ذا الـــغـــنـــى ولـــه جـــلال
يـــكـــاد فـــؤاد صـــاحـــبـــه يـــطيرُ
قـــلـــيـــلٌ ذنـــبـــه والـــذنب جـــمٌّ
ولـــكـــنْ لـــلـــغـــنـــى ربٌّ غـــفـــورُ

وخيروا رجلاً ناضجًا: أيهما تحب أن تكون سقراط الفقير أو روتشيلد؟

فلم يتردد في أن يختار سقراط.. وأنا لا أتردد في أن أقول إنه حضرته حمار!

آخر كلام: الكون مسطح؟!

قالوا: الكرة الأرضية مسطحة! وقلنا: جهل وخرافة.

وقالوا: الكرة الأرضية ليست كاملة الاستدارة، وهذا صحيح.

أحدث كلام هو: أن الكون نفسه ليس كرويًّا.. فهو يضم أجسامًا هائلة ملتهبة تشد بعضها بعضًا وتدور كلها حول بعضها البعض.. الكواكب تدور حول نفسها وحول الشمس.. والمجموعة الشمسية كلها تدور حول نفسها.. وملايين النجوم التي اسمها «المجرة» أو الطريق «اللبني» أو «درب التبانة» كلها أيضًا لها مركز وكلها تدور حول هذا المركز.

ثم إن ملايين المجرات كلها تدور حول بعضها البعض. ولا أحد يعرف أين مركز الكون. وهل له مركز واحد أو أكثر من مركز.. وهل هناك كون واحد.. أو بعدد النجوم والمجرات أكوان أخرى؟

وهذه الأكوان لا تخضع لقانون واحد.. وإنما لقوانين مختلفة، ففي الدراسات الفلكية اكتشف العلماء أن هناك قوانين أخرى غير التي نعرفها.. وأن هناك قوانين بعدد اللغات بين الناس.

وهل لهذا الكون أول وآخر؟

الجواب: لا.. ليس للكون لا أول ولا آخر.. وإن كلمة أول وآخر هي كلمات إنسانية.. أي لغة الإنسان الذي له عقل وله مبادئ في التفكير: أن كل الذي له أول له آخر.. والذي يولد يموت.. وهذا منطق إنساني أو هذه احتمالات يمشي عليها العقل البشري.. ولكن من قال إن العقل الإنساني هو عقل الكون، وإن الكون يفكر بعقل الإنسان أو لكي يرضي الإنسان؟ إن نظرية النسبية ونظريات الكم تؤكد أن هناك احتمالات وأن هناك فروضًا.. وأن هذه الفروض تسخر من القوانين التي اكتشفها الإنسان. فليس عقل الله هو عقل الإنسان.. وإنما غرور الإنسان وضيق أفقه هو الذي صور له أن تفكيره ومنطقه هما السلاسل التي تمسك الكون!

وظهرت نظرية جديدة تقول: إن الكون ليس كرويًا، وإنما هو مسطح.. كيف؟

وإن هناك في الكون إحساسًا وطاقة وحركة لها أكثر من أربعة أبعاد: الطول والعرض والارتفاع والزمن.. بل لها خمسون وسبعون بعدًا والزمن.. كيف؟

قرأت تعليقات عليها.. لا أدعي أنني استوعبت ما قرأت وإلا لنقلت إليك ما قالوا. أما الحد الأدنى بكل ذلك فهو أن أقول لك: آخر خبر.. الكون مسطح وبس.

قالها أمير الشعراء والسادات

كان الأخوان مصطفى أمين وعلي أمين، أستاذا الصحافة الحديثة، في غاية الشجاعة والجرأة؛ ولذلك كانا هدفًا لكثير من النقد والهجوم عليهما، حكوميًّا وسياسيًّا وصحافيًّا أيضًا.

وكانت لهما عبارة شهيرة: إن الطوب الذي ألقي علينا جمعناه وأقمنا به مؤسسة «أخبار اليوم»، طابقًا فوق طابق!

وكان الموسيقار محمد عبد الوهاب يقول إنه تعلم من أمير الشعراء أحمد شوقي ألا يعبأ بالنقد، ويمضي في طريقه، فقد اتهموه بأنه يقتبس كثيرًا أو يسرق لحنًا من هنا وجملة موسيقية من هناك، ففي موسيقى عبد الوهاب تجد موسيقى باخ وأوفنباخ وموتسارت وبيتهوفن. وسيد درويش وأي ملحن معاصر، يعني أنه فنان واسع الثقافة، أما نصيحة أمير الشعراء فهي أن يجمع كل الصحف التي هاجمته ويضعها تحت قدميه، سوف يجد أنه ارتفع عن الأرض أكثر!

وهذا ما فعله شوقي بعد الهجوم العنيف عليه من الأساتذة العقاد والمازني وشكري.

وكان أوسكار وايلد يقول: إذا طعنك أحد في ظهرك، فمعنى ذلك أنك تمشي في المقدمة!

وكان السادات يقول إنه ككل أبناء الريف إذا شعر بالضيق، فإنه يذهب إلى أقرب ترعة ويدلدل فيها قدميه، وينتظر جثث خصومه!

قال لي الشاعر الروسي يفتشنكو، وكنا في زورق في نيل الأقصر، إن عندهم قصة شعبية تقول: إن ذئبًا وقع في بئر، وسعد الناس بذلك فراحوا يلقون عليه الطين أملاً في دفنه حيًّا بعد أن أكل طيورهم، فكان الذئب ينفض الطين عن رأسه وظهره ليستقر تحت قدميه ويرتفع قليلاً، وظل الناس يرمونه بالطين والطوب، وهو ينفضها ويجعلها تحت قدميه، حتى ارتفع وارتفع واقترب من حافة البئر، وقفز خارجها سليمًا واندهش الناس، هم حاولوا إلقاء الطين والطوب عليه، ولم يفكروا، ولكنه فكر في المقاومة والنجاة فجعل القبر سلمًا للحياة من جديد.

وسوف يقع كثيرون في الآبار وسوف يحاول كثيرون دفنهم ولكنهم يحاولون أن يكونوا أقوى من الموقف، والبقاء للأقدر على البقاء.

صرخات الرئيس عبد القيوم!

هيئة الفضاء الأمريكية (ناسا) وهيئة الفضاء اليابانية (جاكسا) التقطتا صورًا لذوبان الجليد جبالاً في القطبين الجنوبي والشمالي، وهي حقيقة قديمة، ولكن الجديد أنها زادت، وأن غازات أخرى قد خرجت منها لتضاف إلى ثاني أكسيد الكربون الذي تطلقه المصانع في غلاف الأرض فتحبس حرارتها لترتفع في كل مكان.

وإذا أضفنا إلى ذلك الحرائق في غابات الأمازون من أجل تحويلها إلى أرض زراعية، ثم الجفاف مع ظاهرة «التصحر»، أي أن تتحول الأرض المزروعة إلى صحاري، وأن تزحف عليها الصحاري أيضًا، فمن الطبيعي أن تنكمش الرقعة الخضراء وأن يتناقص الطعام عند الشعوب الفقيرة فتزداد فقرًا.

أما ارتفاع مياه المحيطات، فسوف يؤدي إلى إغراق دلتا الأنهار الآسيوية وربما نهر النيل. ثم إغراق مئات الجزر الصغيرة في المحيطين الهادي والهندي.

وكان الرئيس مأمون عبد القيوم، رئيس جزر المالديف هو أول من استصرخ الأمم المتحدة، وكذلك استغاثت جزر كثيرة. وإذا كان المد المائي الجبار (تسونامي) قد أغرق عشرات الجزر في دولة المالديف،

فإن الذي سوف يحدث في المحيطات بسبب ذوبان جبال الجليد الهائلة في أقصى الجنوب والشمال، لا يمكن مقاومته، وإنما الحل العاجل في أيدي الدول الصناعية الكبرى التي ساعدت على ظاهرة «الاحتباس الحراري»، وهي الدول التي رفضت توقيع اتفاقية «كيوتو» في اليابان وفي مقدمتها الولايات المتحدة، التي أعلنت رئيسًا بعد رئيس أن الضغط على الشركات الصناعية الكبرى؛ لكي تقلل الانبعاثات الكربونية يهدد الصناعات الاقتصادية والسياسية الأمريكية، يعني: اضربوا رءوسكم في حائط الصين، فلتمت كل الشعوب ولتغرق كل الجزر، ولتحي أمريكا على جثث القارات الأربع الأخرى!

ولا تزال صرخات الرئيس عبد القيوم تدوي، وهي عبء ثقيل على ضمير الإنسانية، ولكن إذا كانت الدول العظمى بلا ضمير فلا صدى لصرخات رئيس دولة صغيرة، ولا أمل في أن تجد صرخاته طريقها إلى أذن الرئيس الأمريكي وتزاحم صرخات الملايين في العراق وأفغانستان وغدًا في سورية وإيران!

طاقية عمرو موسى!

عند عمرو؟ لا عند أسامة.. لا عند عمرو.. هي في الطريق إليك.. وأين محمود؟.. في الطريق إلى الرئيس السادات!

هناك طاقيتان مشهورتان: إحداهما في الأفلام المصرية اسمها (طاقية الإخفاء) وهي مأخوذة عن ألف ليلة.. وهناك طاقية عمرو موسى، وكان وقتها في وزارة الخارجية.

كنا في فيينا، وقد أمطرت السماء غزيرًا، وكان موعد العشاء مع المستشار كرايسكي، ولم يبق أمامنا إلا نصف ساعة، وفي هذا الوقت القصير كان لابد أن ننتظر محمود حلاق الرئيس، واتفقنا معه أن يمر علينا بعد أن يفرغ من الرئيس ومن الذين حوله، ونحن في انتظاره: عمرو موسى وأسامة الباز وأنا، ونحن نريد منه فقط أن يسوي شعورنا، التي ليست كالحرير، على الخدود يهفهف ويرجع يطير – كما يقول عبد الحليم حافظ – ولا هي الشعر الغجري – كما يقول نزار قباني – وإنما هو شعر إفريقي على آسيوي، إذا وقف على حيله فإنه لا ينام، وإذا نام فهي نومته الأبدية، وسألنا عن الكوافير محمود، فقالوا خرج من عند الرئيس واختفى.

وتذكرت أن عمرو موسى عنده طاقية، وهو يرتديها لكي تقوم بدور السشوار (المجفف) وتساعد على أن يكون للشعر أي شكل آخر.

سألنا عمرو، قال: الطاقية عند أسامة الباز، سألت أسامة، قال: في طريقها إلى عمرو، وعدت أسأل عمرو، قال: أرسلتها لك. ومضت الدقائق بسرعة ولم تظهر الطاقية، عاودت السؤال، كلهم يقولون في الطريق إلى كثيرين.

ونزلت لأجدها فوق دماغ أحد السكرتيرين ووضعتها فوق دماغي وتواريت حتى تضغط على شعري، ورأيت حركة غير عادية من عدد من الأصدقاء، إنهم يبحثون عن طاقية عمرو موسى التي تساوي وزنها ذهبًا.

وكانت حالتي هذه أهون كثيرًا من حالتي في (تل أبيب)، فعندما أمر الرئيس السادات الوفد المصري بقطع المفاوضات مع إسرائيل والعودة إلى مصر، رحنا نجري نلملم ملابسنا وأوراقنا، وأسرعت إلى ملابسي أغيرها، وأكملت ارتداءها في الأسانسير، ولكن شيئًا سخيفًا حدث، فسوستة البنطلون لا يمكن إغلاقها، واقترح أحد الزملاء أن أتوارى في ركن من الصالة الكبرى وأغير ملابسي، ووقف خمسة من الزملاء الصحافيين لإخفاء هذا المنظر الذي لو رآه الصحافيون في إسرائيل لكانت صورة في الصفحة الأولى وحديث الناس، ولكن الله سلم.

وعلى مائدة عشاء المستشار النمساوي جاءني سكرتير الرئيس

السادات، وذهبت، وسألني الرئيس: يا أنيس هوه انت نزلت حمام السباحة؟

– لا يا ريس.. معقول في مثل هذه البرودة؟!

وانصرف السادات إلى طعامه، وفي المرآة رأيت شعري منكوشًا كأنني كنت معلقًا منه طوال الأيام الماضية!

بعد عمر طويل!

قبل وفاة كاتبنا الكبير توفيق الحكيم أخرج من تحت المخدة مظروفًا صغيرًا، وبيدٍ مرتجفة قال: أنت وبنتي الوحيدان، كل واحد منكما عنده نسخة من هذه المسرحية.

المسرحية لها مقدمة تقول إنها من تأليف حفيد غير شرعي للشاعر الألماني غوته، وهذا الحفيد مصري صعيدي كان يعيش في الفيوم. المسرحية اسمها «فاوست الثالث».

والمعروف أن الشاعر الألماني غوته قد ألف مسرحية «فاوست» الرائعة، ثم اشترك مع الشاعر شيلر فكتبا معًا «فاوست الثاني» وهي رمزية يصعب فهمها. وهذه هي الثالثة.

وفي ذلك الوقت قلبت صفحاتها، وفي نيتي أن أترجمها، ولكن وجدت أن هذا مستحيل، وإنما الإشارة إليها فقط، فهي نص لفلسفة كافرة تمامًا! وتركتها سنوات وفوجئت بناقد فرنسي يعلن أنه عثر على هذه المسرحية، وقال إنها من تأليف توفيق الحكيم، ورددت عليه، وحكيت كيف تلقيتها من توفيق الحكيم وهو على فراش الموت، وفي مثل هذه اللحظات الحرجة من الصعب أن يكذب الإنسان، ولكن لم أستبعد إذا كان الإنسان فنانًا أو كان توفيق الحكيم أو العقاد أو طه حسين.

وأخيرًا عدت إلى هذه المسرحية أقرؤها بتأمل شديد، فوجدت أن لغتها ليست فرنسية عالية المستوى، وإنما هي أجنبية اللهجة والتعبير، فالذي ألفها لا يمكن أن يكون فرنسيًا، بل بعض عباراتها كأنها عربية أو مصرية. ومن الممكن أن يكون توفيق الحكيم قد اعتبر نفسه حفيدًا للشاعر الألماني، أدبيًا، أو لعله أراد أن يقول إنه حفيد غير شرعي؛ لأنه ابن الثقافة الفرنسية وأنه قرأ الترجمة الفرنسية للنص الألماني، وهو بذلك حفيد الترجمة.. لعله!

وسألتني إحدى دور النشر أن أستعرض المسرحية بدون إشارة إلى ما فيها من كفر شنيع، ووجدت أن هذا إخلال بالنص وليس من الأمانة الأدبية، وفي نفس الوقت لا أستطيع أن أترجم هذه العبارات، ولكن لا أعرف ما الذي أفعله بهذا النص السري.

وأخيرًا قررت أن أحتفظ بها لأضعها ضمن وثائق أخرى في المكتبة التي أقامتها لي مدينة المنصورة –بلدي– لتضم سبعين ألف كتاب هي كل ما عندي من كتب، أي بعد عمر أرجو أن يكون طويلاً.

أخيرًا عرفنا لغة النمل!

﴿حتى إِذَا أَتَوا على وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾. صدق الله العظيم.

[النمل: 18].

ولكن الذي عرفناه أخيرًا ماذا قال النمل للنمل، وما هي لغته، فقد لاحظت الباحثة د. ألفيا روبنسون من جامعة شيفلد، أن النمل يحذر بعضه البعض من أن يمضي في طريق ما، وبسرعة نلاحظ أن النمل غيَّر هذا الطريق. واستمرت ملاحظة الباحثة البريطانية سنوات لسلوكيات عدد كبير من أنواع النمل. واهتدت إلى أن النمل يحذر بعضه البعض عن طريق إفراز مادة لها رائحة طاردة. فلا يكاد النمل يقترب منها حتى يتحول عن الطريق.. وأخذت الباحثة هذه المادة ووضعتها إلى جانب طعام يحبه النمل.. فما كان من النمل إلا أن تحول إلى طريق آخر..

وحللت المادة وعرفتها، وسوف تستخدم هذه المادة ضد النمل.. وذلك بأن تضعها في أماكن مختلفة من البيت فيهرب النمل بعيدًا عنها.. ولما جعلت المادة كثيفة، كان النمل ينحرف بعيدًا عنها تمامًا.. ولاحظت الباحثة أن النمل يفرز مادة لزجة أخرى.. أو مواد

لزجة متنوعة الرائحة.. هذه المادة تقول للنمل: أسرعوا.. البيت قد تهدم، أو أن عددًا من النمل هلك.. أو أن النمل على مسافة قريبة جدًّا من الماء.. لابد أن يتكاثروا عليه قبل أن يفيق ويهرب..

ولاحظت الباحثة أيضًا أن بعض المواد التي يفرزها النمل فسفورية تضيء.. وأن هذا الضوء يهدي النمل ليلاً أو إذا كان هناك ضباب..

فلسفة النمل إذن هي مواد تهدي بها عن طريق الشم أو الخراطيم الشعرية الدقيقة جدًّا.. وليس معنى هذا أن النمل ليس له صوت.. بل له صوت وقد سجلت صوت النمل. ووجدت الصوت أيضًا عالي التردد، وأن هناك فوارق دقيقة تمامًا كما أن هناك فوارق في صوت الدبيب أو الكلمات عند الحيوانات الأخرى..

كان لي صديق يدرس في ألمانيا.. أما رسالته، فموضوعها: الفرق بين النمل في مصر والنمل في ليبيا. ومتى اختلط النوعان في الواحات الداخلة والخارجة؟ ومن العجيب أن صاحبي عرف الفرق وحدد بالصوت والصورة والإفراز خصائص نملنا ونملهم–عجبي!

لها عينا سفاح وشفتا مارلين مونرو!

لا نهاية للنقد العنيف بين بريطانيا وفرنسا.. الرئيس ميتران يقول عن السيدة تاتشر المرأة الحديدية: لها عينا السفاح كاليجولا وشفتا مارلين مونرو.. وقيل نقلاً عنه أيضًا: لها عينا مارلين مونرو وشفتا ستالين.. أي جميلة متوحشة.

وظهر أخيرًا كتاب في فرنسا للطبيب النفسي علي الموجودي يتحدث فيه عن حكاية غريبة.. ففي يوم تلقى مكالمة من القصر الجمهوري في فرنسا.. وكان عليه أن ينتظر وأن تكون عيادته خالية من الزوار تمامًا.. وانتظر الطبيب ساعة ونصفا.. وانفتح الباب عن الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران.. وقبل أن يفكر الطبيب قال له ميتران: جئتك لا لأني مريض ولكن أريد أن أسألك عن هذه السيدة التي ترأس وزراء بريطانيا.. مرجريت تاتشر. وما الذي يجب أن أعمله!

كانت تاتشر قد أعلنت الحرب على الأرجنتين التي تريد غزو جزر فوكلاند وتحرك الأسطول البريطاني خمسة آلاف كيلو متر إلى أقصى الجنوب من المحيط الأطلنطي.

وكان الأسطول الأرجنتيني يستخدم صواريخ مروعة فرنسية الصنع اسمها «إكزوسيست» أي السمك النطاط.. ولأن الصواريخ تنطلق

وتظل أعلى من سطح الماء وتصيب البواخر البريطانية. فأغرقت ثلاثًا.

وذهبت مرجريت تاتشر إلى الرئيس ميتران وقالت له: سوف أستخدم الصواريخ النووية إذا لم تعطني الشفرة الخاصة بالصواريخ التي تستخدمها الأرجنتين! أي أنها في حاجة إلى الشفرة لكي تحول الصواريخ بعد انطلاقها بعيدًا عن الأسطول البريطاني.

ووجد الرئيس ميتران أنه في موقف صعب جدًّا. وقال للطبيب: لقد كانت لهجتها قاطعة، فقد ألقت المسئولية كلها فوق دماغي.. وإنني إذا رفضت فسوف أكون السبب في هذه الحرب النووية. وقال له: إن لهجة السيدة ماجي كانت قاطعة؛ فهي لم تطلب. وإنما كأنها أمرتني وهددتني! وقال إنه أعطاها الشفرة، وبذلك تدخلت في مسار الصواريخ التي حولتها بعيدًا عن السفن البريطانية وانتهت الحرب لصالح بريطانيا!

وقال الرئيس ميتران للطبيب: إنما جئت إليك لأطلب منك أن تكتب هذا على لساني. وأن يصدر كتابك في الذكرى العاشرة لوفاتي.. لأنني لا أستطيع أن أعرض هذه الكارثة على مجلس الوزراء. فكلهم يكرهون تاتشر، ويسعدهم أن تهزمها الأسلحة الفرنسية في أقصى الأرض!

ووفاء بهذا الوعد، نشر الطبيب الفرنسي السر الذي احتفظ به أكثر من عشر سنوات!

الديوك تتقاتل بسكاكين من ذهب!

خبر غريب. نشرت شبكة (سي. إن. إن) الأمريكية أن قوات البوليس هاجمت بيوتًا وأوكارًا واعتقلت 144 مواطنًا. أما التهمة فهي أنهم يمارسون ويشجعون على (مصارعة الديوك) وهي نشاط محظور بنص القانون.

ولم يكتف البوليس بحبسهم وإنما عاقبهم مرة أخرى؛ لأن الديوك التي تأثرت بجراح المعركة مع ديوك أخرى، قد تركوها حتى تموت - منتهى القسوة!

وكنت أظن أن (مصارعة الديوك) محظورة في الدنيا كلها إلا في إندونيسيا والفلبين، وقد أمضيت ساعات طويلة أتفرج عليها وأراهن أيضًا. وقد كسبت الرهان مرة واحدة.. فصراع الديوك رياضة أو لعبة قديمة جدًا موجودة منذ أيام الإغريق والرومان.. وقد حرمتها كثير من الدول ابتداء من القرن الثامن عشر في أوروبا. وفي أمريكا أيضًا.. واللعبة عبارة عن ديوك دربت على الخناق وعلى الالتحام الدموي. ويعمد أصحاب الديوك إلى تزويدها بسكاكين صغيرة حادة يربطونها

في سيقان الديوك، حتى إذا تشاجرت استخدمت السكاكين الحادة بدلاً من مخالبها ومناقيرها. ولا تكاد المعركة تبدأ حتى تنتهي بأن يغرق أحد الديكين أو الاثنان معًا في الدماء..

ويخسرون ويكسبون الرهان.. عشرات.. مئات الديوك في كل مكان!

ما الذي يبهرني أكثر؟!

سؤال غريب، ولكن الإجابة عليه أنني في أول حياتي الصحفية ذهبت لأجري حديثًا مع أحد علماء النفس القادمين من أمريكا، أعجبني الحديث وأبديت إعجابي بالبيت أيضًا، وأسعده ذلك، وقال: لا بد أن ترى الفرن الأمريكي، ووقفت وتمليت الفرن الأمريكي ورأيت كيف أشعله لا بالفحم ولا بالجاز ولا صوت له، ونشرت الحديث تتوسَّطه صورة طويلة عريضة مكتوب تحتها «ويُرى المحرر وقد وضع يده على الفرن الأمريكي»، وصورتي في منتهى السعادة.

أما الفرن الأمريكي فهو (البوتاجاز) العادي جدًّا، ولما ذهبت إلى قواعد إطلاق سفن الفضاء والمكوك الفضائي، لم أفكر في أن تكون لي صورة معها، فهي موجودة على كل شاشة وفي كل بيت.

وكان حالي حال رفاعة الطهطاوي عندما ذهب إلى باريس ورأى «عربة الرش» أي رش المياه، فتوضأ وصلى ركعتين وطلب من الله أن يقيض للكنانة مثل هذا الاختراع اللطيف، وقارن الطهطاوي بين هذه العربة التي ترش ميدان الكونكورد في ساعات، بينما نحن في مصر نرش أحد الميادين بالدلو في يوم كامل!

وانبهرت كما انبهر الكاتب الأمريكي مارك توين عندما رأى المطبعة في منتصف القرن التاسع عشر، كتب يقول: لأول مرة في التاريخ أجد حروفًا خشبية منفصلة بعضها عن بعض ومرصوصة رصًا دقيقًا، ثم إنها تظهر على الورق في ثانية، عجبي!

وفي رواية «حديث عيسى بن هشام» للمويلحي نجده يتحدث في ذهول عن الراديو، ماذا يقول وكيف يقول ولا أحد يعرف كيف انحشر الناس في هذا الصندوق الصغير!

قال لي قارئ نشرة الأخبار في التلفزيون المصري: إنه عندما ظهر لأول مرة فزعت أمه كيف أنه «انسخط» وأصبح صغيرًا في صندوق، لدرجة أنها أمسكت فوطة وراحت تحرك الهواء خوفًا من أن يختنق!

وكلنا مبهورون بالتليفون المحمول الذي تحرك قشرة معدنية صغيرة به الذاكرة والألوان والموسيقى والصورة، وهي لا تزيد عن مساحة الأظافر.

وننسى أن الذي اخترع كل ذلك شيء هلامي لونه سنجابي فوق دماغك: المخ، ففي هذا المخ كل تاريخ البشرية والإنسان والماضي والحاضر والمستقبل، ولا فرق بين مخ الإنسان العبيط ومخ أينشتاين، كيف؟ إنها إحدى معجزات الله!

عبارات على التاكسي: عادة فرعونية!

على سيارات التاكسي في مصر، وعلى سيارات النقل عبارات موجهة إلى الذين وراء السيارة، ومعظم العبارات تتحدث عن الحسد، أي أن صاحب السيارة أو سائقها يخاف من عيون الناس «ما تبصليش بعين رضية شوف اللي اندفع فيَّه»، أي لا تنظر إلى منظري وشكلي. وإنما كم تكلفت من الفلوس لكي أشتري هذه السيارة، أو «العين صابتني ورب العرش نجاني» أو أن السائق يكتب أسماء أولاده أو اسم التدليل للسيارة!

وهذا النوع من الكتابة هو عادة فرعونية عمرها أربعة آلاف سنة، فالفراعنة أول من كتب في غرفة الدفن وعلى التابوت، أدعية وصلوات ولعنات أيضًا؛ ففي الاكتشافات التي ظهرت أخيرًا لعمال بناء الأهرام وجدوا على إحدى البوابات هذه العبارة «اللعنة على من يتجاوز هذا الباب» وقد تجاوزه توني بلير زعيم حزب العمال البريطاني.

وانتقلت هذه العادات إلى الحضارات الرومانية والإغريقية فكتبوا على قبورهم، إذ كتب الأديب الإغريقي سمونيدس هذه العبارة: «يا من يمر إلى جوار قبري قل لهم إن المخلصين قد ناموا هنا»! وعلى

اللوحة التذكارية لقتلى الحلفاء في منطقة العلمين: «من أجل يومكم وغدكم متنا بالأمس»، وعلى قبر الشاعر الألماني هينه بيتان من الشعر نظمهما الكاتب الكبير إبراهيم عبد القادر المازني:

أيها الزائر قبري اتل ما خط أمامك

ها هنا فاعلم عظامي ليتها كانت عظامك

بل إننا نكتب على قبور الكلاب والقطط التي كانت عزيزة علينا، ففي مستشفى الحيوانات في العباسية بالقاهرة مقابر للكلاب، أشهرها مقبرة كلاب د. هاشم فؤاد عميد كلية الطب، فعلى القبر الصغير نقشت هذه العبارة «إن الحياة بعدك صعبة مؤلمة جدًا»، وكتب اسمه واسم زوجته وابنته. واللواء محمد نجيب، أول رؤساء مصر، كانت عنده مقبرة للكلاب كتب عليها «هنا يرقد أعز أصدقائي».

ولما سألني التليفزيون المصري: «وأنت ماذا تكتب على قبرك؟» قلت: «عاش ونام ليلة واحدة» واستجاب الله لدعائه فأمات أمه قبله، حتى لا تتعذب من بعده، وكانت حياته حول ألف سؤال، لم يتلق إجابة إلا عن واحد منها!

ونجحت سفينة الفضاء اليابانية!

لم ينجح اليابانيون فقط.. وإنما كانوا أول من عادوا بأحجار فريدة من الفضاء الخارجي.. فالأمريكان عادوا بأحجار من تربة القمر. ووزعوها على المتاحف والمعامل في الدنيا ليشتركوا معهم في البحث عن أصل الكون.

فالقمر قد ظهر بعد ظهور كوكب الأرض بحوالي ألف مليون سنة..

أما اليابانيون فقد أطلقوا سفينتهم هايا بوسو - أي الصقر. وقد وصلت إلى النيزك الذي أطلقوا عليه اسم أحد علماء الفضاء اليابانيين. وكان المفروض أن يهبط من السفينة إنسان آلي صغير في حجم التليفون المحمول.. ولكن التعليمات قد تأخرت قليلاً مما جعل الإنسان الآلي يفلت إلى الفضاء الخارجي. وفكر اليابانيون في استعادة السفينة وعودتها إلى الأرض.. والمسافة 290 مليون كيلو متر لتصل في سنة 2007 وتهبط في أستراليا.

وكانت السفينة قد اقتربت سبعين مترًا من النيزك، فصدرت لها الأوامر من اليابان إلى محطات المتابعة في أستراليا أن تعود إلى النيزك.. وكان المفروض أن تطلق السفينة مقذوفًا يحطم سطح النيزك.. فيرتفع التراب وتخرج الكاميرات، تصور وتسجل وتحلل

وتبعث إلى الأرض.. حتى هذا لم تستطع السفينة أن تحققه فصدرت لها الأوامر بأن ترتطم هي بسطح النيزك. ولأن جاذبية النيزك ضعيفة جدًّا، أي تساوي واحدًا على المائة ألف من جاذبية الأرض فلا خوف كبيرًا من ارتطام السفينة.. وارتطمت وحدث التواء في مقدمتها.. وارتفع التراب وامتدت الأيدي لجمع التراب والحجارة المتناثرة لتعود السفينة ناجحة في سبق علمي..

ولم يكن هذا فقط هو الذي انفرد به علماء اليابان وإنما استخدموا كاميرات جديدة لأول مرة واستخدموا أجهزة للطيف والحرارة والجاذبية جديدة تمامًا.

أما الأهمية القصوى لهذه الأحجار فهي أن النيازك تدور في الفضاء فتتعرض للحرارة والبرودة والضغوط من ألوف ملايين السنين.. وأنها لم تتغير كما تغير سطح القمر والكواكب الأخرى.. فكانت مادة النيازك هي المادة الأولى للكون الذي عمره الآن أربعة عشر ألف مليون سنة.. وسوف نرى..

حتى يضحك طه حسين!

في جلسة صغيرة في فيلاً أستاذنا طه حسين قال لي: أعرف أنك قلدتني في إحدى حفلات الكلية.. وأسعدت زملاءك وزملائي. فما رأيك لو فعلت ذلك مرة أخرى؟ وشعرت بالكسوف. وحاولت ألا أفعل. ولكن إصرار طه حسين وكل الحاضرين اضطرني إلى ذلك. حاولت مقلدًا صوته الهادئ وترتيبه للكلمات وحركات دقيقة لم يرها طه حسين. قلت: إذا كنت راكبًا حمارًا، فأنت راكب والحمار مركوب.. ولما كان المركوب هو الذي يلبس في القدم، ولما كان الحمار لا يلبس في القدم، فلا أنت راكب ولا الحمار مركوب..

وضحك طه حسين كثيرًا وطويلاً، وطلب مني أن أعيد هذه العبارة ليضحك مرة أخرى. وطلب مني أن أقلد الأستاذ العقاد. وحاولت ألا أفعل، ولكنه أصر، أما صوت العقاد وحركة رأسه ويديه فأستطيعها تمامًا. قلت: هذه قضية لا خلاف عليها شرحتها ودللت عليها، والذي يقول إنها ليست صحيحة أجدني مضطرًا أن أضع أصابعي في عينيه. فمثل هؤلاء الناس لا مكان لهم على الأرض، وعندي دليل على عدم أحقية هؤلاء الناس في الحياة.

ويضحك طه حسين ويرجوني أن أقلد توفيق الحكيم. أما حركات توفيق الحكيم بيديه ورأسه فلا يراها طه حسين: هوه يعني أم كلثوم تغني وتنبسط وتاخد فلوس.. والرجل اللي كتب لها الأغنية ياخد ملاليم؟ واللي عمل لها المزيكة نايم وراها ومش لاقي ياكل.. والناس تصفق لها وتقول: الله يا ست.. الله على إيه؟! على إنها تاخد الملايين واللي عملوا لها كل شيء ياخدوا الملاليم ونصفق لأم كلثوم ونقول سيدة الغناء العربي.. تغني آه على عيني.. وتكسب آه على راسي.. بس ترش شوية فلوس هنا ولا هنا.. هاها.. هاها.

وكان لنا أستاذ في الفلسفة الإسلامية اسمه د. مصطفى حلمي، وكان يدرس لنا محيي الدين بن عربي ونظريته في الوجود، فقلت بناء على إصرار طه حسين أيضًا: محيي الدين يفسر لنا الكون من فوق لتحت ومن تحت لفوق – كما يقول شكوكو.. فهو التحت – فوقي أو الفوق – تحتي إن صح هذا (التعبور) يا أنيس منصور!

هاها.. هاها.. أستاذنا طه حسين يضحك ويعلق على شقاوة الطلبة، ويحكي لنا ما حدث في إحدى المحاضرات في السوربون عندما وجد الأستاذ ورقة على مكتبه تقول: إن كنت أستاذًا عظيمًا فلا تتكلم.

وأخذ الأستاذ الورقة وقال: أما إنني عظيم فلا أدعي ذلك.. أما صاحب هذه الورقة إن كان صادقًا فيما يقول فليخرج من القاعة.. فخرج جميع الطلبة إلا طه حسين. وأصر الأستاذ أن يدرس لطه حسين وحده.. هاها.. هاها. صوت طه حسين وهو يضحك..

الفقر: ألوف ملايين الرجال!

لو كان الفقر رجلاً لقتلته – عبارة نسبت إلى حكماء كثيرين.. والمصيبة أن الفقر ليس رجلاً وإنما ثلاثة آلاف مليون رجل وامرأة وطفل من سكان كوكب الأرض.

ويقال إن رجلاً ذهب إلى عمر بن الخطاب فقال له:

الفقر مرُّ المذاق

من أجله وقفنا على الطلاق

ما عندكم ينفد

وما عند الله باق..

ويقال إن رجلاً آخر ذهب إلى عمر بن الخطاب فقال له:

يا عمر الخير جزيت الجنة

اكس بُنَيَّاتي وأمهن

وكن لنا من الزمان جنة

أقسم بالله لتفعلن..

فقال له عمر: وإذا لم أفعل يكون ماذا؟

فأجابه:

تكون عن حالي لتسألن

يوم تكون الأعطيات هنة

وموقف المسئول بينهن

إما إلى نار وإما جنة!

ويقال الكثير عن الذي فعله عمر بن الخطاب.

وقد رأى أحد المفكرين الألمان الذي عايش الطاعون في أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر فشل ثورة سنة 1848. قال: إن الفقر ليس في الجيب والمعدة والعقل فقط. هذا المفكر اسمه رودلف فورشوف. ربما كان أول من قال إن وراء كل ويلات الدنيا وعذاباتها شبحًا واحدًا قائمًا قاتمًا: هو الفقر؛ فالفقير لا يملك طعامًا ولا مسكنًا ولا هواء صحيًّا ولا قدرة له على أن يتعلم، ولا أمل عنده والحصيلة: اليأس والإحباط. وهذا اليأس هو الأب الشرعي لكل أنواع الغضب والثورة.

وقال فورشوف أيضًا: أن تكون فقيرًا هذا صعب، وأن تكون شريفًا أيضًا هذا أصعب، ولا حرية لفقير، ونابليون هو الذي قال: إن الشعوب كالأفاعي تزحف على معدتها. ولم يولد الإنسان ليكون جائعًا.

يقول فورشوف في كتاب ظهر أخيرًا: أمام أي اضطراب وأية فوضى فتش عن شيء واحد عن الفقر أين يكون في هذه الصورة المخيفة، وإذا كان كارل ماركس قد قال: كما تأكل تكون. فإنني أقول: كما لا تجد تكون. فمن الممكن أن يأكل الفقير وأن يعيش، ولكن مشكلة الفقير ليس ما يجده أمامه وإنما ذلك الذي يتكدس أمام الأغنياء وما زاد عنهم يرمونه للكلاب!

مصر تبحث عن عين الملك!

لقد اكتشف العلماء أن أحد الملوك قد سرقت عينه وعرضت في مزاد بسويسرا، أما هذا الملك فقد اكتشفته البعثة السويسرية في مصر، ويبدو أن اللصوص من سويسرا أيضًا، وتقدمت مصر بشكواها وعندها أمل في استرجاع عين الملك، مع أن عينًا واحدة تكفي، فهي مثل الأخرى ولا داعي لمشاكل وقضايا مع دولة صديقة.

وقبل ذلك عندما اكتشفنا رأس الملكة نفرتيتي وجدناها بعين واحدة، ولا تزال، فالفنان الذي نحتها لم يكد يكملها حتى قامت ثورة فهرب، ولم يستطع أن يضع العين في محجرها، وبقي رأس نفرتيتي والعنق الدقيق والملامح الجميلة. كما هي باهرة للعين، ولا تزال في متحف برلين آية من آيات الفن الجميل عند الفراعنة، وأنا أتمنى ألا تعود، وأن تبقى حيث هي، فهي في مكانها وسط أوروبا تحفة، ولا أظن أننا مهما فعلنا من أجلها في مصر، فلن يرقى إلى الأبهة الفنية والجمالية التي تنعم بها هذه الملكة التي ليست مصرية الأصل، فالعنق الدقيق والأنف والشفتان ليست من الملامح الإفريقية، ولا نعرف بالضبط من أي الدول المجاورة هذه الملكة العجيبة.

أو سرقها، أي أن الغرض هو أن نفكر في نفرتيتي كثيرًا وطويلاً وما زلنا!

وبالمناسبة فإن رجلاً ذهب إلى خياط بعين واحدة ولما سأله الناس: من الذي خاط لك هذه الملابس قال:

خاط لي زيد قباء

ليت عينيه سواء

قل من يعرف هذا

أمديح أم هجاء!

عايشت وعشت الزمن الجميل؟

نحن نتحدث عن أيام زمان، والعصر الجميل والزمن الجميل. ونتنهد على أن الذي مضى لن يعود.

والفرنسيون هم الذين ابتدعوا هذا التعبير la Belle epoque ويقصدون بها السنوات التي جاءت بعد الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا وامتدت حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى، كان فيها كل شيء جميل، ليست الحياة فقط، وإنما الإحساس بجمال الدنيا، وقد ظهرت نظريات في العلم والأدب والفن تفسِّر للناس ما الذي يحبون ويعشقون وما المستقبل الأكثر جمالاً، وقد حدثت انفراجة سياسية وانتعاش اقتصادي بعد ظهور آلات الاحتراق الداخلي الذي ضاعف الإنتاج وزاد عدد العمال الوافدين من الريف للحياة في باريس، فقد كانت باريس هي عاصمة القرن التاسع عشر.

وظهرت مجلة اسمها «الضحك» وكانت أكثر المجلات انتشارًا، والضحك من مظاهر الحيوية والإصلاح والتفريج عن النفس.

ونحن عندما نقول الزمن الجميل نقصد كل سنوات ما قبل «ثورة يوليو» كان الفن رقيقًا والأدب ممتعًا، وكانت شخصيات باهرة عبقرية في كل مجال وكان المسرح والفن والموسيقى والغناء.

وكان من السهل أن نفطر مع أم كلثوم ونتغدى مع محمد عبد الوهاب ونتعشى مع يوسف وهبي ونسهر مع طه حسين.. كل ذلك في يوم واحد، أيام فيها نماذج رفيعة المستوى، والموهبة العظيمة تمشي على قدمين، وكانت الحرية ولم يظهر الخوف والفزع والإنسان على الإنسان جاسوس، ولم يكن الشعب ممزقًا على نفسه كارهًا حاسدًا حاقدًا.

وكان الشعار هو ما قاله توفيق الحكيم، ننظر وراءنا في ندم وحولنا في خوف وأمامنا في يأس!

ولما قال أستاذنا العقاد إننا جميعًا سوف ندخل الجنة؛ لأنه يكفينا عذابًا أن عشنا في عهد الثورة، قالها العقاد وأقفلوا صالونه الأدبي.

ولكن العقاد الذي دخل السجن تسعة أشهر في عهد الملك فؤاد لم يعد يهمه ماذا يمكن أن يحدث له، وقد دخل السجن لأنه قال: إن قلمي يستطيع أن يحطم أكبر رأس في مصر!

وكان ذلك أكثر من احتمال الملك فؤاد.

ذلك هو الزمن الجميل الذي لا يخاف فيه الكاتب وإنما الحاكم يخاف!

نعم.. كثيرون جدًا لا يعرفوننا!

في سنة 1963 كنا وفدا من الأدباء في اليمن: يوسف السباعي ونجيب محفوظ والشاعر محمود حسن إسماعيل والشاعر صالح جودت ود. مهدي علام وأنا. وعند عودتنا استوقفنا موظف الجمرك ليرى ماذا أتينا به من عدن، وهذا شيء من النادر أن يحدث لأمثالنا، واقترب منه يوسف السباعي، وسأله: هل تعرف يوسف السباعي. قال: لا. ولا نجيب محفوظ؟ لا. ولا أنيس منصور؟ ده اللي بيكتب عن الحب للبنات، الله يخرب بيته فلوس بنتي كلها رايحة على كتبه. وضحكنا وأشارت الأصابع ناحيتي، وخجل الرجل ولم يكمل التفتيش في حقائبنا. وحدث أن أوقف رجال المرور سيارة الممثلة نادية لطفي، وسألته: ألا تعرف نادية لطفي! لا. ولا سمعت عنها؟ لا، أنت ميت إذن.

ودافعت أنا عن الرجل الواقف ليلاً ونهارًا في الصحراء لا عنده راديو ولا تلفزيون، ثم إن نادية لطفي ليست بديهية حسابية مثل 2+2=4، ولا هي ولا أنا ولا أحد! وفي التاريخ أن الشاعر جيته والموسيقار بيتهوفن كانا يتمشيان؛ جيته طويل عريض، وبيتهوفن قصير ممتلئ، وتناقشا أيهما الأشهر ولم يكن في زمانهما لا صحف ولا تلفزيون، وقد اقترب منهما أحد المشاة فسأله الشاعر جيته: هل تعرف من نحن؟

نظر إليهما الرجل وقال للشاعر: أظن أنت العمدة.. وللموسيقار قال: وأنت ناظر المدرسة!

وكانت للوزير حفني باشا محمود مداعبات خشنة، مميتة أحيانًا؛ فيوم حريق القاهرة سنة 1952 عرض الباشا أن يوصلني بسيارته إلى بيتي، وعند عبور كوبري قصر النيل استوقفنا البوليس، فما كان من الباشا إلا أن نزل من السيارة وقال للجندي البسيط معي أحمد حسين.. تعرف أحمد حسين؟

الجندي لا يرد، فعاد الباشا يقول له: أحمد حسين الذي أحرق القاهرة، إنه معي، ألق القبض عليه، وهذا الجندي البسيط لا يعرف من هو أحمد حسين ولا من هو حفني باشا محمود طبعًا ولا أنا. وأنا أصرخ وأقول له: يا باشا في عرضك بلاش الهزار الثقيل، يا باشا مش كده.

وأخرج الباشا بطارية صغيرة من جيبه وركزها على وجهي قائلاً: إنه أحمد حسين، أمسكه ولك مكافأة، لا تضيع هذه الفرصة.

وعاد الباشا إلى السيارة يتهم الجنود بالجهل وأنا بالجبن؛ إذ كيف لا أقدم نفسي للعدالة؟!

.. بقلم بنت الرئيس!

أنا واحد من المعجبين بالرئيس الفرنسي ميتران، فإلى جانب أنه سياسي بارع وأنه ذئب مدرب تدريبًا جيدًا جدًّا، فهو رجل شجاع، وهو ناقد أدبي من الطراز الأول، وقد رأيت ميتران في أسوان يكتب أمامنا الخطبة التي سوف يلقيها، وهو يكتب ويشطب ويعيد صياغة ما يكتبه، سعيدًا بما يعمل، ونحن سعداء به أيضًا!

وبعد وفاة ميتران ظهرت له عشيقات من كل لون ونوع، سيدات جميلات وممثلات وقارئات كَفٍّ، واحدة منهن قالت: السحر هو ما يقوله هذا الرجل، إن المرأة التي تستطيع أن تقاوم جاذبية ميتران لم تولد بعد!

وقبل وفاته أعلن عن أن له ابنة غير شرعية، خرج بها، رآها الناس لأول مرة، وإن كان الكثيرون من رجال السياسة يعرفون ذلك، ولكن أحدًا لم يجرؤ أن ينشر أخبارها؛ لأن هذه حرية شخصية، وليس من حق أحد أن يقول أو يخوض في خصوصيات أحد، وكانت زوجته تعلم وأولاده أيضًا، وعندما قدمها للأسرة تظاهروا بأنهم لا يعرفون، احترامًا للأب، وكانت عشيقته تقيم في القصر الجمهوري هي وابنتها.

الابنة اسمها «مازارين بنجو» أصدرت كتابها الأخير بعنوان «أفواه مطبقة». في هذا الكتاب أو هذه اليوميات أو الاعترافات تتحدث ابنة الرئيس عن طفولتها وعن نصحها سرًا وعن بعدها عن عيون وألسنة الناس، وكيف أنها لا تستطيع أن تتحدث عن أبيها وعن أمها، بل إنها سألت أمها كيف أكتب اسم: ميتران.. وهل به راء واحدة أو اثنتان.

والذي كتبته ليس عملاً أدبيًا جميلاً، وإنما هي صيحات وصرخات ودموع شابة تريد أن تقول للناس إنها ابنة الرئيس ميتران، وأن من حقها أن تقول ذلك، وكلمة الأب تتردد في هذه الاعترافات مئات المرات تؤكد لنا أن البنت التي ترك لها أبوها كل وثائق حياته السياسية وعينها حارسًا عليها، محرومة من أن تقول: هذا أبي، وهذه ابنته، وقد بيع من كتابها مئات الألوف، ولكن لم يكن أدبًا متميزًا، وإنما كلماتها كلها أصابع تشير إلى أن هذا الكتاب من تأليف بنت الرئيس!

سر جمال رئيس الوزراء!

الإيطاليون اتهموا رئيس وزرائهم برلسكوني بأنه يتردد على محلات التجميل كثيرًا، فامتنع عن الذهاب وأتى بالمحلات إلى بيته وبفلوسه، فهو أغنى أغنياء إيطاليا، وهو حر تمامًا كيف ينفق أمواله.

ولما فشل نيكسون في الانتخابات أول مرة وجدوا له تفسيرًا وحيدًا وهو: أن الماكياج الذي استخدمه لم يجعله جميلاً، وإنما أبرز الجمود الذي في ملامحه.

وأن الرئيس ريجان، لأنه ممثل سابق، فقد برعت زوجته، التي كانت ممثلة أيضًا، في أن تجعل صورته على الشاشة شابًا وسيمًا- صحيح أنه كان ممثلاً متواضعًا، ولكنه يعتبر من أعظم رؤساء أمريكا وأخفهم دمًا.. وكان صاحب قدرة فريدة على حفظ الخطب التي سوف يلقيها!

ويوم حفلة الافتتاح تساءلت الصحف الأمريكية عن المجوهرات التي تضعها حرم الرئيس ريجان، وتساءلوا من أين لها هذا؟ وأنه يجب أن تعترف فورًا، وسكتت أيامًا، ولم تسكت الصحف، وأخيرًا اعترفت بأن هذه المجوهرات استعارتها من أكبر محلات المجوهرات

في نيويورك وكذلك كرافتات الرئيس، وأما الماكياج لها ولزوجها فهدية من أكبر صالونات نيويورك!

وكانت الصحف الفرنسية قد تساءلت عن سر الشباب الدائم للممثل الكبير شارلي شابلن وراحت تجيب عن هذه الأسئلة وتطوعت فذكرت المقويات التي تنتجها الشركة الفلانية.. ووجدت هذه الشركة أن هذه فرصة للإعلان عن الأثر القوي لهذه الحبوب التي هي سبب عبقرية شارلي شابلن، وتضايق شارلي شابلن وهدد بأن يلجأ إلى القضاء إذا لم تكذب الشركة ما أعلنته.

والمعنى: أنه قوي بنفسه وبأسلوبه في الحياة والرياضة، ولا يدين بذلك لشركات الأدوية، وحاولت شركات الأدوية أن تساومه، ليقول إن عقاقير هذه الشركة هي السبب، فرفض رفضًا تامًّا، ولما هدد بأن يشكو الصحف، قالوا له: من حق أي إنسان أن يسأل سواء كان صحافيًّا أو كان من المتفرجين على روائعه السينمائية.

لا هجومًا على: على قد الشوق
ولا دفاعًا عن: أنا والعذاب وهواك!

نشرت الصحف المصرية حديثًا قديمًا مع الموسيقار كمال الطويل، فقال: أنيس منصور صديقي، ولكنه عدواني!

انتهى الحديث واستقرت صفة العدوان وراء اسمي، ولكن لماذا؟ هل هي صفة عامة دائمة، أم هي صفة قالها الطويل لمناسبة عنده أو لمقال كتبه عنه، وهاجمته، ولابد أن يكون للهجوم عليه أسباب، وخاصة أنه صديقي، وما دام صديقي فلابد أنني لم أجد إلا حلاً واحدًا هو الهجوم عليه لعله..؟!

تاريخ هذا الحديث قديم، يرجع إلى أغنية «على قد الشوق» التي غناها عبد الحليم حافظ من تلحين كمال الطويل من 53 سنة، وقد سبقنا عبد الحليم حافظ في غنائها، لقد كنا نغنيها مع كمال الطويل في نهاية السهرة كل ليلة، حتى غناها عبد الحليم حافظ، فكانت هي الصاروخ الذي رفعه إلى مدار حول كوكب الغناء والموسيقى!

وليلاً ونهارًا نسمع الأغنية في كل الإذاعات ويرددها الناس في كل الحفلات.

وفجأة ظهرت أغنية لمحمد عبد الوهاب: أنا والعذاب وهواك، جميلة رائعة ظل الناس يرددونها وهي تزحزح أغنية عبد الحليم حافظ شيئًا فشيئًا حتى تسلطنت في عالم الطرب، وفي ذلك الوقت أخذ كمال الطويل يهاجم عبد الوهاب ويقول إنه يريد أن يحطمني.. أن يقتلني، إنه قد لحن هذه الأغنية للقضاء على أغنية: على قد الشوق، إن عبد الوهاب شرير وأصدقاء عبد الوهاب بطانة شريرة أيضًا.

فكتبت مقالاً هاجمت فيه صديقي كمال الطويل دفاعًا عن صديقي محمد عبد الوهاب، ولم يكن كمال الطويل يتوقع مني هذا الهجوم، وإنما كان يتوقع أن أحشد وراءه هجومًا على عبد الوهاب، وكل الذي اعترضت عليه هو أن يكون هذا أسلوبه في نقد أستاذه العظيم، وبس، ولذلك وصفني بأنني عدواني، مع أنني لست كذلك، وإنما حاولت أن أرد صديقًا عن إهانة أستاذه وصديق هو محمد عبد الوهاب، أقول كمان: ونسي عشرات المقالات التي كتبتها إعجابًا به وهيامًا بموسيقاه التي كنا نغنيها ليلاً ونهارًا!

ولكن الأصدقاء، مهما كانوا فكذلك يفعلون!

فما أطال النوم عمرًا!

لا أعرف إن كان يسعدني أو يشرفني أو يخفف عني أن يكون هـؤلاء زملائي في الأرق: الرئيس جونسون ونابليون وفرويد والموسيقار جرشوين والملاينير هيوز والفيلسوف نيتشه والشاعر بتراركه ويوسف وهبي، والأرق أنواع: ألا ينام إلا بعض ساعة مستعينًا بالحبوب المنومة أو بالمهدئات من المشروبات.

وهناك الأرق الجاف، أي الذي تصاب فيه العينان بالجفاف، ويخيل إليك أن العين سوف تسقط من مكانها لأنها تتحرك بصعوبة كأنها تصطدم بشيء سوف يقلعها.

وهناك الأرق بالأيام كأن لا تنام يومًا أو يومين ويرهقك أكثر أنك تحاول أن تنام، ولكن النوم عزيز المنال – كما تقول الأغنية.

أنا لا أعرف بالضبط أي هذه الأنواع ينطبق على حالي، فمثلاً إذا حدث ونمت في السيارة في طريقي إلى البيت، دقيقة أو دقيقتين، فمعنى ذلك أنني لا أنام حتى الصباح فقد أنفقت وبددت كل رصيدي من النوم في دقيقة واحدة، تمامًا كما تنفق كل ما في جيبك على سلعة واحدة وتعود خالي الجيوب تمامًا!

لا بأس، ولكن من النادر أن يحدث ذلك!

وفي مذكرات الزعيم العمالي هارولد ويلسون يقول: رئيس الوزراء الناجح هو الذي عنده إحساس بالتاريخ وينام ملء جفونه فقد استراح ضميره!

وكان السادات يقارن بينه وبين عبد الناصر، فكان يقول عبد الناصر يضع أمامه أكثر من تليفون ويصحو وينام على نشرات الأخبار، ولذلك ينام بصعوبة بالمنومات ويصحو بالمنبهات طوال اليوم، أما السادات فلا يضع أمامه تليفونًا ولا يتابع نشرات الأخبار، فليس في الدنيا شيء مستعجل، ولا شيء يجب أن يصرفه عن النوم!

وكنت أقارن بين الرؤساء الثلاثة: عبد الناصر والسادات ومبارك، فأقول عبد الناصر يجلس وراء مكتبه ومبارك يجلس أمام مكتبه، والسادات يترك المكتب ويجلس تحت شجرة - فهو الأهدأ والأعمق نومًا.

ولا يشفي من الصداع واحتراق العينين ما يقوله عمر الخيام:

فمــا أطــال النــوم عمرًا

ولا قصر في الأعمار طول السهر!

لا جبابرة ولا كانوا قساة!

عبارة مشهورة تقول: كل ذي عاهة جبار.

أي أن هذه العاهة تجعله قاسيًا على الناس لإحساسه بأنه (ناقص)، وأنه كان يستحق ما هو أكثر من ذلك، والناس يرددون هذه العبارة إذا كانوا يواجهون صاحب العاهة، ويرون في غلظته وحقده على الناس، وقسوته على نفسه، سببًا وجيهًا. ويبدو أن هذه العبارة ليست صحيحة على الإطلاق.

وقد عايشت الكثيرين من هذا الطراز من الأدباء والمفكرين والفلاسفة؛ فطه حسين ضرير وكذلك المعري وهوميروس، ويحيي حقي قصير، وكذلك المازني وبيكاسو وخروشوف وجاجارين وبونابرت وتوت عنخ آمون.

وكان الصحفي الكبير على أمين لا يعرف كيف يضحك، وكذلك كان الرئيس عبد الناصر، فقد كان يصدر عنه هسيس – أي مشروع في ضحكة.

ومن الغريب أن أستاذنا طه حسين عندما كان وزيرًا للمعارف كان يفتتح المعارض الفنية، فيقف أمام اللوحات ويصفونها له،

وكان لا يتحرج في ذلك، وكنا لا نندهش؛ فطه حسين لم يولد أعمى، وإنما صار كذلك، فهو على دراية بالألوان ثم فقد الإحساس بها بعد ذلك، وكانت لطه حسين تعبيرات لونية غريبة، كان يقول كان الصوت أبيض شاحبًا، أو يقول: وكانت شهر زاد إذا تحركت تحولت الأصوات لوحات مشرقة الحواس، وإن ظهرت فيها لحظات سوداء من الصمت.

لقد كانوا زينة دنيانا وجوهرها، وقادتها وضياءها الهادية إلى سواء السبيل في الأدب والفن والحياة، وما وجدنا فيهم لا قسوة ولا جبروتًا، فلم يشعروا بأنهم أصحاب عاهة وأنهم دون سائر خلق الله، وقد خلت دنيانا منهم – فوا أسفاه!

تماسيح الفراعنة كانت أبشع!

رأيت ماذا فعلت القنابل الذرية بمدينتي هيروشيما ونجازاكي.. رأيت الأرض قد ابتلعت بيوتها وسكانها ونباتها وحيوانها.. ولا أحد يعرف أين ذهبت أجساد الناس.. ولكن عرفت ما الذي أصاب الأحياء على مسافات بعيدة من مركز الانفجارات النووية.. فقد تشوهت أجسادهم وكذلك النباتات والحيوانات، والذين ماتوا هم جزء صغير من الذين شوهت الإشعاعات المميتة أجسادهم وعقولهم.

ورأيت ماذا فعل التسرب النووي في مفاعل شرنوبل بأوكرانيا.. لم أذهب إلى شرنوبل رغم الأيمان الغليظة من الرسميين أنه لا خوف علينا.. ولكن رأيت ماذا حدث للأرض ومن عليها على بعد مائتي كيلو متر.. شيء عجيب؛ فالنباتات والحيوانات فقدت ذاكرتها.. فشجرة التين أصبحت شجرة برتقال، وشجرة البرتقال أنكرت صفاتها الوراثية وكانت لها أفرع كأنها أذرع وسيقان.. والإنسان لم يعد إنسانًا ولا الحيوان.. صور بشعة للوحشية النووية.

وكانت كل هذه المشاهد على الشاشة أبشع!

ولكن الذي كان أقسى على النفس وقدرتها على التحمل ما حدث في آخر أيام الحرب العالمية الثانية سنة 1945، فقد أغرقت الغواصات اليابانية البارجة الأمريكية أنديانا بولس فقفز إلى المحيط الهادي أكثر من مائتي بحار ليكونوا طعامًا سائغًا لمئات من أسماء القرش.. فقد احتشدت أسماك القرش على رائحة الدم.. فلم يبق من هؤلاء الجنود إلا عشرون حاولت أسماك القرش أن تخطفهم من زوارق النجاة.

ومن الغريب أن بعدها بشهر واحد هرب اليابانيون أمام القوات البريطانية إلى المحيط بالقرب من جزيرة رامباري تجاه شواطئ بورما.. وكانت مذبحة مروعة، فقد هاجمت التماسيح الجنود اليابانيين، ومن عادة التماسيح أن تجرجر ضحاياها إلى ما تحت الماء فتختنق وتموت.. يقول المؤرخ الأميرال روبرت هور في كتابه الجديد «فوق وتحت الماء» أن هذه المذابح هي أبشع ما عرفه التاريخ الإنساني.

أما أنها مذبحة، فلا شك في ذلك، ولكن ليست الأولى في التاريخ، فقد حدث منذ ثلاثة آلاف سنة في مصر أيام الملك بيبي الثاني أن قامت في مصر أول ثورة شعبية، وكان الناس يتساقطون من الجوع على الأرض وفي الماء، وكانت التماسيح تزحف عليهم، ولما فرغت من الناس اتجهت إلى حيواناتهم، كما لم يحدث قبل أو بعد ذلك في التاريخ!

وضحك طه حسين فأحزنني أكثر!

عدد كبير من المشاهير قرءوا نعيهم في الصحف، وكان ذلك على سبيل الخطأ، فألفرد نوبل صاحب الجائزة الشهيرة قرأ نعيه، وأزعجه ذلك، مع أن الذي توفي كان أخاه، وكذلك الأديب الأمريكي مارك توين والفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل.. وطه حسين- وأنا كتبت النعي مع الأسف الشديد.

ففي إحدى الليالي وفي ساعة متأخرة اتصل بي نائب رئيس تحرير «الأخبار» المصرية وقال لي: البقية في حياتك طه حسين مات، وأرجو أن تكتب لنا فورًا أو تقول في التلفزيون شيئًا عن الفقيد، وسألني: متى ولد؟ قلت: سنة 1889 مع العقاد والمازني وعبد الرحمن الرافعي وهتلر ونهرو وشارلي شابلن وثلاثة فلاسفة وجوديين: هيدجر الألماني ومارسل الفرنسي وفنجنتشين النمساوي.

- ما الذي يبقى منه؟

- لا أعرف بالضبط، ولكن أعماله الأدبية سوف تبقى، كم من الزمن؟ لا أعرف.

- أهم صفاته الأدبية؟

– أنه ناقد جريء، وعباراته جميلة؛ فالثلاثة الكبار كل واحد له صفة، فالعقاد هو المفكر وطه حسين هو الأديب وتوفيق الحكيم هو الفنان، وثلاثتهم كتبوا عن (محمد) ﷺ، فالعقاد وضع خريطة للسيرة النبوية يتحرك في داخلها، وطه حسين استمع واستمتع، ونسج الحكيم ثوبًا من الأحاديث النبوية، أو بعبارة أخرى العقاد يقف أمام التاريخ ويشده وراءه وطه حسين يمشي إلى جواره ويساره وتوفيق الحكيم يمشي وراءه.

– سوف يدخلون الجنة؟

– الله أعلم.

– البقية في حياتك.

– حياتك الباقية!

ولم يمت طه حسين وفي ساعة مبكرة اتصلت بالسيد فريد شحاتة سكرتير طه حسين، أرجوك وأتوسل إليك ألا تقرأ هذا المقال لأستاذنا الكبير، إنها غلطة؛ فمن عادة الصحف أن تسبق الأحداث خشية أن تسبقها صحف أخرى، أرجوك.

وبعد ساعة كلمني فريد شحاتة وهو يضحك، قال لي: الدكتور قرأ مقالك وضحك.

وأحزنني ذلك طويلاً!

بل نريد موسيقى هادئة!

بعد الحرب العالمية غيرت كثير من الدول أناشيدها الوطنية، فقد نظمت هذه الأناشيد القومية في ظروف حربية، فهي تستنهض الهمم وتشعل النار في الدم في البندقية في قلب العدو، ومع وقف القتال والهدنة والسلام ألغيت الأناشيد القومية أو حذفت بعض الكلمات.

وبعض الأناشيد من نظم وتلحين فنان واحد، وبعضها من تأليف مجموعة من الفنانين، وبعضها مجهولة الشاعر والموسيقار مثل النشيد الوطني البريطاني، أما مصر والهند وإيران وكوبا وفيتنام وإندونيسيا فالموسيقار هو الشاعر، فالنشيد الوطني المصري من كلمات وموسيقى سيد درويش، والنشيد الوطني الهندي من نظم وموسيقى الشاعر الكبير طاغور.

ولأن العالم كله يحلم بالسلام مع الجار ومع النفس فقد اتجهت كثير من الدول إلى إعادة النظر في أناشيدها، وآخرها فرنسا التي قررت أن نشيد (المارسيز) نسبة إلى مدينة مارسيليا الفرنسية يجب حذف بعض الكلمات التي تدعو إلى التعبئة وإراقة دم العدو، ونشيد فرنسا كتب كلماته وموسيقاه أحد القادة العسكريين، وكان هذا النشيد يجلجل في كل المعارك الحربية طوال مائتي سنة في أوروبا وإفريقيا.

وأذكر أن الرئيس السادات طلب من الموسيقار محمد عبد الوهاب تأليف موسيقى للنشيد الوطني، أو إعادة توزيع وإضافة ما يراه جماليًّا لنشيد سيد درويش: بلادي بلادي. وقد حرص عبد الوهاب أن ينفرد بهذا الشرف العظيم؛ فقد كتب موسيقى وتوزيعًا جديدًا بديعًا، وفي نفس الوقت جعل الموسيقى بثلاث سرعات مختلفة وفي استراحة القناطر الخيرية جلس الرئيس ومحمد عبد الوهاب وأنا لكي نستمع.

وسمعنا المقطوعة ثلاث مرات بسرعاتها المختلفة، سريعة وأقل سرعة وبطيئة، وطلب الرئيس إعادتها، ثم مرة ثالثة، والتفت إلينا، وسأل عبد الوهاب: تختار إيه يا محمد؟ فكان رد عبد الوهاب: سيادة الرئيس أنا ألَّفت وعرضت والرأي لك.

التفت الرئيس يسألني: ما الذي أختاره من المقطوعات الثلاث، وكلها بديعة ولا خلاف بينها؛ فقلت على سبيل الاحتياط: أختار الثانية يا ريس!

فرد السادات بصورة قاطعة: لا.. أنا أختار الأبطأ؛ لأننا لا نريد أن نحارب. خلاص تعبنا من الحروب، نريد السلام نريد أن نذوق طعم السلام والأمان والراحة، والتقاط الأنفاس.. تعبنا.

وكان قرارًا نهائيًّا!

براءة بعد عشرين عامًا!

لم أكد أخطو إلى داخل المركز حتى شعرت بدوخة، وتساندت على أحد أساتذة مركز (الرازي للسموم) في إحدى ضواحي مدينة طهران، قال لي: مالك؟

ولكنه لم يصدقني وقال لي: إنه مزيج من الخوف والقرف، ومن النادر أن يحدث لأحد ذلك، فأنا أعيش من عشر سنوات داخلا خارجًا.

وظل يصف الأفاعي والعناكب والعقارب ويطيل، وكأنه يصف ملكات الجمال، وبمنتهى المتعة واللذة راح يقارن بين العيون والألسنة والرءوس وألوان الجلود، ولم أجد كل هذه الصفات الجميلة في الأفاعي التي تبعد وتقترب وترفع أعناقها.. وبسبب صوت غريب يخرجه من فمه كانت الأفاعي تزداد اقترابًا وترفع رءوسها كأنها تصغي إليه باهتمام شديد – على فكرة الأفاعي ليست لها أذان وإنما تلتقط الموجات الصوتية بلسانها!

وبعض الأفاعي لا ترى أو ضعيفة النظر ولذلك تعتمد على درجات حرارة المكان عن طريق خلايا ضوئية على جانبي الرأس.

أما مهمة هذا المعهد فهي جمع أكبر كمية من السموم وتحويلها إلى مسحوق لشركات الأدوية العالمية، وهي تستخدم السموم في علاج أوجاع الروماتيزم والذبحة الصدرية، ولذلك فالذين يعملون في تربية النحل لا يصابون بأية أوجاع في المفاصل ولا يصابون بالربو، وذلك بسبب السموم في لسعات النحل أيضًا.

وكان في نيتي أن أحكي عن الخرافات في الريف المصري، ولكن لم تطاوعني نفسي أن أفتح فمي وأقول. فلم أقل إننا في الريف نعتقد أن هناك أنواعًا من الأفاعي اسمها «ذات الجوهرة» فهي تخفي في حلقها جوهرة مضيئة، فإذا أرادت الأفاعي أن تصيد العصافير أو الفئران أخرجت الجوهرة من حلقها وراحت على ضوئها تصيد ضحاياها، فإذا ابتلعت وامتلأت أعادت الجوهرة إلى مكانها ومضت إلى أوكارها.

وأخيرًا جدًّا وجدت تفسيرًا لهذه الدوخة التي أصابتني ولم يصدقني أحد علماء المركز، فقد قرأت في مقال نشرته «نيويورك تايمس» أن بعض الأفاعي الهندية تنفخ في الهواء بالقرب من فريستها فإذا هي ساقطة على الأرض في حالة إغماء فكأن الأفعي قد وفرت سمومها لما هو أخطر واكتفت بتدويخ الضحية، فإذا تصورت أن في معهد الرازي أكثر من ألف ثعبان كلها تنفخ في هواء المركز ليلاً ونهارًا، فمن الطبيعي أن أدوخ، ومن الطبيعي أن الذي اعتاد على سموم الأفاعي وأنفاسها لا يدوخ.

براءة بعد عشرين عامًا. وغلطان يا أستاذ يا بتاع الأفاعي.

سنة ونصف بلا استحمام !

أول مرة سافرت إلى باريس نزلت في فندق في حي (سان ميشيل) وهو حي طلبة الجامعة، والفندق اسمه (نيودلهي)، وعندما ذهبت أبحث عنه بعد ذلك وجدتهم هدموه.. أحسن!

لم تكن في هذا الفندق دورات مياه ولا حتى حمامات، وإنما توجد دورة مياه واحدة للفندق، أما الغرف فمزودة بحنفيات لغسل الوجه، وإذا أردنا أن نستحم فيجب أن نذهب إلى الحمامات العمومية، ولكن الأفضل هو أن نشتري زجاجات الكولونيا ومعها قطع الإسفنج ونمسح أجسادنا، كما يفعل الفرنسيون.

وفي اعترافات رائدة الفضاء البريطانية ستيفاني واكر أنهم لا يستحمون في الفضاء، فالماء بالغ التكلفة، وإنما يمسحون أجسادهم بالماء، أما الكولونيا وكل الكحوليات فممنوع نقلها إلى الفضاء، لأن الكحول مشكلة، فسلامة السفينة تحتم استبعاده تمامًا، وتقول إنه يوجد القليل من الماء ولكن لأغراض مختلفة ومعقدة، أما الاستحمام فهذا ترف لا تقدر عليه هيئة الفضاء الأمريكية الآن، وتقول إن ملابس الرواد مصنوعة من خيوط فضية، ليست الملابس فقط وإنما المخدات والمراتب وملاءات السرير.. والسبب؟ حتى لا تعيش فيها البكتيريا.

وتقول إن جو سفن الفضاء ليس جميلاً ونقيًّا تمامًا، ولكن به رائحة الأماكن المغلقة طويلاً، وبها رطوبة، وقد تصل هذه الرطوبة في المحطة المدارية الدولية إلى 80 في المائة وربما أكثر.

وتقول إن مذاق الطعام ورائحته تتغير وتبعث على الغثيان ولا حيلة للعلماء حتى الآن، ولذلك يتدرب رواد الفضاء على تعاطي أطعمة ليست لذيذة ولا جميلة الرائحة، حتى لا يصابوا بصدمة تمنعهم من الإقبال على الطعام المقرف الذي لا بديل عنه ولا مفر منه!

وفي سفن الفضاء يقومون بتدوير البول، أي تحويله إلى ماء سائغ وكذلك البراز، فالضرورة لها أحكام، وهذه أقسى أحكام الضرورة، وليس أسهل الآن من إرسال إنسان إلى القمر، ولكن الرحلة القادمة هي إرسال رواد إلى المريخ، للدوران حوله والعودة في سنة ونصف السنة، فكيف يأكلون ويشربون وينامون، إن حال الرواد قاسية جدًّا، وحياة الرواد كلها أسرار وكلها تبعث على الأسى، لكنهم شجعان يتفانون في خدمة العلم من أجل الإنسانية أو من أجل حياة أفضل وأكرم، فإذا ضاقت بنا الأرض هربنا إلى الكواكب ذهابًا وإيابًا مهما طالت الرحلة.. بلا استحمام!

وداعًا كاميكاز اليابان !

في نهاية الحرب العالمية الثانية لجأ اليابانيون إلى استخدام الشبان الانتحاريين في ضرب الأسطول الأمريكي، وذلك بأن يتجه الجندي بطائرته المحملة بالذخائر والمفرقعات إلى قلب إحدى سفن الأسطول الأمريكي.. وقد نجح اليابانيون في إغراق 14 سفينة حربية أمريكية.

ثم طورت اليابان هذه الأساليب الانتحارية. وكانوا يسمون هؤلاء الجنود «كاميكان» أي الذي يموت في سبيل الوطن وسعادة الإمبراطور وشرف العسكرية اليابانية.. فكان اليابانيون يضعون الزوارق والطوربيدات التي يتجه بها الجنود بأقصى سرعة إلى بطن إحدى السفن الحربية.. وكانوا أيضًا يجلسون إلى جوار الألغام فإذا دنت الدبابة أو السفينة الأمريكية انفجر مع اللغم..

ويقال إن كاميكاز هذه كلمة يابانية معناها: الرياح المقدسة، فيقال إنه في الحرب بين اليابان ومنغوليا في القرن الثالث عشر هبت رياح على القوات المنغولية فأبادتها وانتصرت اليابان. ولذلك اختاروا اسم الرياح المقدسة لهذه الفرق الانتحارية..

وتساءل علماء الأخلاق: ما الذي يجعل الكاميكاز الياباني حريصًا على إصابة الهدف. لماذا لم يفكر واحد منهم في أن يوجه الطوربيد أو الزورق أو الطائرة إلى البحر.. فيسقط حيًّا ويصبح أسير حرب؟ والجواب أن أحدًا لم يفعل ذلك.. لأن الفوت أهون جدًّا من أن يقع أسيرًا في يد العدو.. ولو وقع أسيرًا لانتحر فورًا.

وهو لا ينتحر لأنه وقع أسيرًا ولكن لأنه أخطأ. وأن هذا الخطأ لم يكن مقصودًا وإنما هو دليل على أنه لم يكن دقيقًا في أن يموت في قلب الهدف..

وفي العام الماضي وقبل ذلك بثلاثين عامًا وجدوا جنودًا يابانيين يعيشون في الغابات في عزلة تامة، ولا يعرفون أن الحرب قد انتهت. وعندما عثروا عليهم رفضوا إلقاء السلاح إلا بأمر من الإمبراطور وقمة المجد والشرف. وبعثوا لهم ببالونات وألقوا عليهم منشورات بخط الإمبراطور يطلب إليهم إلقاء السلاح.

وقام الأمريكان بتغيير الدستور الياباني حتى لا يكون كاميكاز.. وحتى لا يموت أحد من أجل الإمبراطور..

غلبان جدًا: فرس البحر !

المثل الشعبي يقول: «قلبي على ابني انفطر وقلب ابني عليَّ حجر».
كان زمان فلم تعد للأم الحديثة لا قلب يدق ولا ينفطر. فلا تكاد تختلف مع زوجها حتى تنفصل وتترك الأولاد يبلهم ويشرب ميتهم. والذي ضاع من قلب الأم أضيف إلى قلب الأب. فالآباء في آخر استفتاء للرأي في بريطانيا يفضلون العناية بأولادهم – 80٪ من الذين سئلوا أجابوا بأنه من الواجب أو مما يسعدهم أن يبقوا أطول وقت مع أولادهم.

ولا يهم ما الذي تفعله الأم بعد ذلك.. قال بعض الآباء إنهم لا يريدون أن يكرروا غلطة آبائهم في الانصراف عنهم، وهم صغار.. بعض الآباء قال: بدلاً من انتظار أحفادي لكي أسعدهم.. أن أولادي يستحقون هذه السعادة ليكونوا أكثر لطفًا وعطفًا على أولادهم..

ولا يشبه الرجل الحديث في عالم الحيوان، إلا سمكة فرس البحر أو حصان البحر.. وهي سمكة صغيرة جدًا وسميت كذلك، لأن رأسها يشبه رأس الحصان. هذه السمكة تجيء الأنثى وتبيض في جيبها.. ويبقى البيض حتى يلقحه الأب ويظل في جيبه حتى يفقس. فإذا فقس قفز من جيب الأب. أما الأم في ذلك الوقت فهي تلعب بذيلها مع

ذكور أخرى. أما الذكر فهو لا يعرف إلا أنثى واحدة، ويظل ملازمًا لها مدى حياته..

وفرس البحر هو نموذج لما يجب ألا يكون عليه الزوج.. فهو يحمل الصغار بيضًا حتى يفقس.. ويبقى وحده يعاني ويلات الحمل والحضانة، والزوجة ولا هي هنا.. ثم إن هذا الذكر مفطور، أي بالغريزة مرتبط أو مخلص لزوجة واحدة، أما هي فلا هي مرتبطة ولا هي مخلصة!

عندما سافرت إلى أستراليا للمرة الثانية من 25 عامًا. وجدت عددًا كبيرًا من المصريات في غاية السعادة لماذا؟ قلن: لو كنا نعرف يا أستاذ لو كنا نعرف!

لو كن يعرفن أن الزوج إذا شخط في الزوجة أمام صاحبتها، واستشعرت أنه أهانها، فمن حقها الطلاق. وقد حصلت على الطلاق عشرات، فما أسعدهن في أستراليا.. أما الأولاد صغارًا وكبارًا، فهم في أحضان أبيهم! فما أتعسه!

لو خلقني الله عند نهاية الكون!

أحاول أن أنسى دائمًا هذه العبارة، التي قالها الفيزيائي الكبير أينشتاين عندما أراد أن يقارن الذي يعرفه بالكثير جدًا الذي لا يعرفه. قال: إن كل ما لدينا من معلومات مثل طابع بريد فوق قمة مسلة فرعونية. وقال أيضًا إننا قد عثرنا على «ظلطة» ملونة صغيرة نفرح بها على شاطئ المحيط المجهول!

مثل هذه المعاني تجعلنا نشعر باللاجدوى من القراءة والبحث لأن الذي نعرفه قليل جدًا. الله سبحانه يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، ولكننا ننسى حتى نشعر بأننا قد حققنا شيئًا مهمًا.

وعبارة أخرى قالها الشاعر الألماني شيلر في رواية «الحب والدسيسة»: إن الله سبحانه يخفي عظمته عن الناس حتى يشعر كل واحد بعظمته.

وأذكر عندما كنت في طهران وزرت المتحف الوطني وفيه أكوام من الماس وعليها حراس شداد، لاحظت أن السيدات عندما يرين هذه الكتل الماسية يخفين أصابعهن أي يخفين فتافيت الماس في أصابعهن، خجلاً من هذه الكنوز، ولا يشعرن بالراحة إلا عندما يخرجن من المتحف.

ومن يومين قرأت حوارًا مع العالم الفلكي الأمريكي البروفسور مارتن، يقول: إن الكون يلاعبنا ويسخر منا، فكل يوم نكتشف شيئًا جديدًا يحيرنا، وفي كل مرة نكتشف جديدًا يداخلنا الغرور فنقول: هانت.. نحن اقتربنا، ثم نهنئ أنفسنا على ذلك وتمضي ساعات ونعود إلى الدهشة وإلى العجب وإلى نقطة البداية والمربع صفر، فالكون عجيب ويزداد غرابة، ونحن اعتدنا على أن نرى القليل جدًّا وننتظر، وبعد الانتظار يضاف قليل إلى القليل، ولا نهاية لهذا الكون العجيب!

فنحن لا نعرف حتى الآن إن كان هناك كون واحد أو ألف مليون كون، ونحن استرحنا إلى أن هذا الكون بدأ من 14 ألف مليون سنة، فلا نكاد نفرح لهذا الاكتشاف حتى نتساءل وما الذي كان هناك قبل هذا الكون، هل كون آخر..كيف بدأ ومتى انتهى وكيف انتهى، ومن أين جاء هذا الكون الجديد، وهل تعيش معنا ملايين الأكوان، أو ألوف ملايين الأكوان.. كيف وأين ولماذا، وما الحكمة؟

شيء واحد يرضي غرورنا جميعًا، وهو أننا الحيوان الوحيد الذي يعرف أنه لا يعرف، وأنه يريد أن يعرف، وأنه قد صنع لنفسه أطرافًا صناعية ليرى أعمق ويسمع أقوى – فقد صنعنا المراصد الفلكية والمدارية لنرى أبعد وأعمق، وصنعنا الميكروفونات للتنصت على موسيقى الكون، وقد نجحنا، فما الذي سوف نحققه بعد ألف أو بعد مليون سنة؟

إن الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان قال ما نتمناه جميعًا: آه لو كان الله قد خلقني عند نهاية هذا العالم؛ لأعرف ما الذي حققه الإنسان للإنسان عندما يكون قد حل مشكلات الحياة ومشكلة الموت، أو الحياة بلا موت!

كلهم ينتحرون.. بالعقل أو بالغريزة

يرى علماء النفس أن الحروب هي انتحار جماعي، يعني: أن شعوبًا قررت بكامل قواها العقلية وفلاسفتها وسياسيِّيها وعلمائها وقادتها أن تفقد عقولها وتخوض حروبًا مميتة!

ولكن في عالم الحيوان أيضًا ظاهرة غريبة، ففي الأسبوع الماضي نشرت الصحف أن قطيعًا من الأغنام في تركيا تساقط من فوق الجبال، وكان السقوط عمدًا، وذلك عندما قفز أحد الأغنام إلى الهاوية ومن ورائه 450 خروفًا وهي حادثة تحدث لأول مرة، ولا توجد لذلك أسباب واضحة، فلا طعام غريبًا تناولته ولا حبوب هلوسة وإنما فجأة وفي غاية الهدوء تقاطرت الخراف الواحد وراء الآخر.

وظاهرة الانتحار الجماعي موجودة أيضًا في السويد والنرويج، ففي كل شهر من كل سنة تزحف مئات الألوف من الفئران لتلقي بنفسها في بحر الشمال، وفي طريقها إلى البحر تسحق النباتات والخضراوات والفواكه وقد حاولوا أن يعرفوا لذلك سببًا فلم يجدوا حتى الآن.

وقد عرفت جزيرة سري لانكا في عصور قديمة ظاهرة انتحار الأفاعي ولأنها على شكل كرة ثقيلة فإنها تهبط إلى قاع الماء، وبعد لحظات تكون كلها قد ماتت!

وفي الدول حول جبال الهملايا بين الهند والصين توجد ظاهرة عجيبة حاول أحد العلماء المصريين أن يجد لها تفسيرًا وقد ساعدته في البحث شركة (رولكس) العالمية على تفسير هذه الظاهرة.

أما الظاهرة فهي أن مئات ألوف العصافير تعبر الهملايا وتنقض على إحدى المدن فتجد النار قد أوقدت في الميادين استعدادًا لها، وتنقض العصافير على النار فتحترق لكن لماذا؟ هناك شيء غريب لاحظه الباحث المصري أن بعض العصافير عندما تهبط تحرص على أن تكون بعيدة عن النار فإذا رأت أن عصفورًا لم يحترق بدرجة كافية دفعته إلى النيل، وهي وراءه.

وبعض علماء الاجتماع يرون أن الأفراح الجماعية لها هذا المذاق أي عشرات من الشبان قرروا أن يشجع بعضهم البعض في حفلات زفاف مشتركة كأن الواحد منهم أراد أن يورط نفسه حتى لا يتراجع أو كأنه أراد أن يفلت من الزفة هو وعروسه وأن يغرق في جحيم من الموسيقى الصارخة والطبول العاوية.

ولا أظن ذلك لأن الزواج في جميع الأحوال انتحار إرادتين سواء كانت هناك موسيقى جنائزية أو لم تكن!

وأنا أيضًا جئت صدفة!

لابد أنها سلسلة طويلة من الصدف أدت إلى ما نحن عليه.. فأنا لا أعرف كيف التقى أبي بأمي، ولا كيف تم الاتفاق على الزواج فجئت أنا وأحد عشر أخًا.

وكل الناس كذلك، وما نسميه صدفة فهو ما يبدو لعقولنا ولكن بالنسبة لله سبحانه وتعالى، فلا توجد صدفة، فهو يعرف ما كان وما سوف يكون.

ومعنى ذلك أنه كان من الممكن ألا أكون، إذا لم يكن لقاء بين أبي وأمي.

وفي مذكرات أستاذنا د. عبد الرحمن بدوي قصة عادية ولكنه حاول أن يجعلها فلسفية، أو حكاها كأنها اكتشاف عظيم وهي في الحقيقة مثل كل حكاية. قال: إنني أعيش صدفة، فقد حاول أحدهم أن يقتل والدي فأطلق عليه الرصاص في اللحظة التي انحني على الأرض فلم تصبه الرصاصة وعاش أبي لأولد أنا.

أول فيلسوف مصري هو د. عبد الرحمن بدوي أستاذنا وأستاذ الفلسفة الوجودية.

ورأيت فيلمًا عن الحيوان المنوي، الفيلم عبارة عن تصوير عجيب في رحم إحدى السيدات، وفي الرحم توجد كاميرا دقيقة وميكروفونات دقيقة صورت لنا الحيوان المنوي وهو يجري يحاول أن يلتحم بإحدى البويضات، وبعض الحيوانات لها ذيل وبعضها بلا ذيل، ومن ملايين الحيوانات يلتحم واحد مع بويضة واحدة أو اثنتين، أما كيف تم ذلك؟ فهي الصدفة أيضًا، وبعد ذلك تبدأ معجزة الخلق: وهي أن هذا الكائن الضئيل ينقل إلى البويضة كل صفات الأبوين وعاداتهما أيضًا.

وعندي حكاية، فقد كان أبي يعمل مأمور زراعة عدلي باشا يكن رئيس الوزراء وكان عليه أن ينقل إلى الباشا حصيلة بيع الخضراوات والفواكه فيركب حصانه ومن ورائه حراس مسلحون وأن يخوض حقول القصب حتى يصل إلى القطار، وفي إحدى الليالي أطلق حصانه صوتًا من أنفه دليلاً على أن هناك أحدًا قد اختبأ في حقول القصب، فقال أبي: السلام عليكم.

وجاءه صوت يقول: عليكم السلام يا حضرة المأمور!

لم تكن هذه هي النهاية فقد قتل اللصوص هذا الرجل الذي رد السلام، ومن أخلاقيات اللصوص أنهم إذا سالموا أحدًا لا يخونونه. وعاش أبي بسبب أخلاقيات اللصوص.. وجئت.. لا أعرف كيف!

مائة مليون من أجل نظرة!

لا بطول العبارة ولا بقصرها، وإنما هناك عبارة طويلة تتساقط منها المعاني بسبب الطول، تمامًا كما ترتدي جلبابًا طويلاً تتعثر فيه.

وهناك عبارات قصيرة مكثفة المعاني كأنها حبات اللؤلؤ، وقد تكون من كلمة واحدة، وفي الكلمة الواحدة كل البلاغة، يقال إن قائدًا أنذر قائدًا عسكريًّا آخر، فقال له: إذا جئت بلادكم هدمتها على رءوسكم ويتمت أطفالكم ورملت نساءكم وأحرقت زروعكم.

وكان الرد عليه: إذا!

ويقال إن أطول دقيقة في تاريخ السينما العالمية جاءت في فيلم (بن هور)، ولقد رأيت هذا الفيلم لأول مرة في هوليود سنة 1959 في مسرح اسمه (المصري) – المقصود به موسى عليه السلام.

هذا الفيلم ظهر قبل ذلك على المسرح ومن تأليف الجنرال وليم سون، وكان أساسًا لأوبرا وقد أعده اليهود قبل أن يعرضوا على الفاتيكان إصدار قرار بالعفو عن اليهود الذين يلعنهم الكاثوليك في صلواتهم وفي سنة 1963 في المجمع المسكوني، (المسكوني نسبة إلى

المسكونة) أي كوكب الأرض، أي المجمع العالمي، تقدم كاردينال ألمانيا، واسمه ببا بوثيقة يطلب فيها العفو عن اليهود من تهمة صلب المسيح لأن الذي صلبه وعذبه الرومان.

هذا الفيلم تكلف مائة مليون دولار وكل هذا الفيلم من أجل دقيقة واحدة، وهذه الدقيقة تعادل عشرين قرنًا، فالمسيح عليه السلام عندما حمل صليبه وسار به في طريق الآلام صاعدًا إلى جبل الجلجثة كان من بين المتفرجين الأمير بن هور- وهو يهودي- فلم يكد يرى المسيح حتى فزع وحاول أن يتقدم كأن يحمل عنه الصليب، فقط هذه اللحظة مجرد أنه حاول، هذا الموقف كان دليلاً على أن اليهود لم يكونوا راضين عن تعذيب ومحاكمة المسيح!

وأقصر وأوقع وأوجع آية في الكتاب المقدس – العهد القديم والعهد الجديد – جاءت في سفر (يوحنا) الآية تقول: وبكى يسوع!

أن يبكي يسوع ليس هذا بالأمر الهين ولا هي العبارة التي نمر عليها بدون حزن على نبل صاحب الرسالة والظلم الواقع عليه من أجل خلاص البشرية.

كانت لنا جارة شديدة التدين والتقى والصفاء كثيرة البكاء على حالها وحال البشرية وعلى عذاب السيد المسيح وكانت تقف عند هذه الآية القصيرة، ولا أعرف كم عدد المرات التي تبكي فيها أو تبكيها وتغسل بدموعها صليبًا جاءها من القدس!

إذا أردت الماس فعليك بالجيف !

هل لابد من القذارة لتكون غنيًا؟

هل لا بد من السفالة لتكون سياسيًا؟

هل لا بد من الغش لتصل أسرع؟ أناس يرون ذلك، ويؤكدون أن الإنسان مخلوق من الطين، ويجب ألا ينسى أصله، وأناس يقولون إن الإنسان صفحة بيضاء، ونحن الذين نكتب ونمحو، ثم نكتب ولا نمحو، فهي من صنعنا، ونحن من صنع أنفسنا.

ليس صحيحًا أن كل الأغنياء لصوص ولا كل الناجحين غشاشون، ولا كل الذين سبقوا وصعدوا واستقروا مزورون، انظر حولك وتأمل وناقش وحلل، فسوف تجد أن النجاح والفلاح والقيم الأخلاقية، كلها عن طريق واحد قويم مستقيم.

سألت أحد رجال الصناعة اليابانيين، وكان يعمل في شركة (ميكوموتو) لصناعة اللؤلؤ، قال لي، ونحن نشرب الشاي الأخضر في مدينة طوبا، وأمامنا عشرات البنات، يبعن اللؤلؤ للسياح، قال إن مثله الأعلى هو ميكوموتو نفسه، فقد كان نموذجًا لكل العصاميين، عرف التعب، والجوع، والحرمان، ولكنه كان يؤمن بنجاحه في

المستقبل، وكأنه يرى أصابع يديه في ضوء الشمس، وكان الناس يصفونه بالجنون، وقد نجح، وعلمنا أن الطريق البسيط إلى النجاح، أنه يضيق ويتسع ويعلو ويهبط، ولكنه واحد وكلمة السر هي: الصبر والاستمرار والتقشف والثقة بالنفس.

بعض الذين ترجموا «ألف ليلة» وقفوا عند إحدى القصص، ورأوها نموذجًا للسلوك العربي – منتهى الظلم!

القصة تقول إن هناك واديًا اسمه «وادي الماس»، هذا الوادي عميق، وعندما تطلع عليه الشمس يتألق، فقد تغطى بملايين من قطع الماس، وانعكاس أشعة الشمس عليه، يكشف الهوة العميقة التي استقر عندها الماس، ويكشف الصعوبة أو الاستحالة في الوصول إلى هذه الكنوز الخرافية.

وفي «ألف ليلة» اهتدى أحد أبطال القصة إلى حيلة، وهي أن يلقي بجثث الحيوانات الميتة إلى الوادي، فإذا استقرت الجثة التصق بها الماس، فجاءت النسور وحملت هذه الجيف، وقد تعلقت بها قطع الماس، ومن عادة النسور أن تتناول طعامها على القمم، ولا يكاد النسر يستقر فوق الفريسة حتى يباغته الصيادون، الذين ينتظرونه، فيهرب النسر، ويترك لهم هذه الجيفة المرصعة بالماس. وفي اليوم التالي يلقون بالجثة مرة أخرى وتحملها النسور ومعها المزيد من الماس.

وهكذا يكون معنى القصة، أنه لا وسيلة أخرى للحصول على الماس، إلا بالاستعانة بأقذر السبل وأحقرها، وكلها خرافات الأولين!

ما دمنا لا نعرف معنى الإرهاب!

الإرهاب يدق كل الأبواب، وهو يفعل ذلك منذ زمن بعيد، ولكن الصورة النموذجية للإرهاب كانت في الثورة الفرنسية، فقد أسفرت الثورة الفرنسيةعن عصر الرعب الذي أطاح بألوف الرءوس، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ولما كانت رقاب الأطفال صغيرة فكانوا يحطمون رءوس الأطفال.

والاسم الخالد هو السفاح روبسبير رجل القانون، الذي كان أول ضحاياه القانون! وصورة روبسبير لم تغب عن عين وخيال فلاسفة العنف والإرهاب: كارل ماركس وفريدريش أنجلز ولينين وستالين، فهم يرون أن التاريخ قوته الدافعة هي العنف، ولابد أن يخوض العنف في بحار من الدم، فبغير دم وحديد وسجون لا تقدم للبشرية، والعنف لا يفرق بين فقير وغني وفلاح ونبيل، بل إن القاضي الذي أعدم الكيميائي العظيم لافوازيه قال: إن الجمهورية ليست في حاجة إلى علماء!

ووقعت أعمال عنيفة كثيرة في الدنيا ومرت دون أن نستوعب أسبابها ومعانيها وتعاظمها وظهور فلاسفة يباركونها.

فمثلا في سنة 1898 انعقد مؤتمر دولي في روما لمحاربة (الفوضويين)، وقرر المؤتمر اعتبار الفوضوية خروجًا على القانون

وأنها جريمة، واتفقوا على ألا تأخذهم بالفوضويين رحمة وألا يعطوهم حق اللجوء السياسي، وكما اجتمع المؤتمر انفض، ويا دار ما دخلك خير ولا شر!

وعندما انفجرت قنبلة في مطار لوجوارويا في نيويورك وراح ضحيتها عشرون بريئًا، اهتزت أمريكا، ولم تذهب إلى أبعد من ذلك، وظهرت رءوس الإرهابيين على شكل انقلابات وثورات في أمريكا اللاتينية وكان شعارها جميعًا: في البدء كان العنف!

فماذا كانت النتيجة؟ كانت أن قامت دول كثيرة باستنساخ روبسبير سفاح الثورة الفرنسية، وضعوه في أعلى مكان، فما الحل؟ هل نحن لم نساعد على انتشار الإرهاب؟

الجواب: نعم، إن الدول الكبرى التي تقاوم الإرهاب هي أول من استخدمته على أوسع نطاق وبعيدًا عن بلادها.. هل هناك أبشع من استخدام القنبلة الذرية؟ استخدمتها أمريكا التي تحارب الإرهاب بوسائل إرهابية أيضًا. بلاش أمريكا. الدول الصغيرة التي تنشر التطرف الديني. فإذا مال إليه الناس اعتقلتهم الدولة، ففي مصر مثلا ننشر مقالات لكتاب متطرفين وبعضهم مخرفون، ونتوسع في ذلك فإذا رأى أحد القراء أو مئات من القراء أن التطرف الذي ننشره هو الصحيح، واعتنقوا ذلك، حاكمتهم الدولة بتهمة الخروج والتآمر، فمن الذي نتهم؟ أنفسنا وهو أصعب، أو نتهم غيرنا وهو أسهل.

هل نعود إلى مؤتمر روما ونجتمع ونخطب ونلعن ونتفرق كأن شيئًا لم يكن؟ أغلب الظن أننا سوف نفعل ذلك لأن أعضاء الوفود لم يتفقوا حتى الآن على معنى كلمة (الإرهاب) ولن يتفقوا.

وكان شفاؤهم الماء ولا يزال!

الطبيب لا يمزح معك إذا قال: اشرب كوبًا من الماء، ثم بعد لحظات يطلب إليك: كمان كوب من الماء!

إنه يقرر حقيقة علمية وهي حاجة الإنسان إلى الماء، زجاجات من الماء، وليس من السوائل، إذا أردت أن تنام إذا أردت أن تخفف الضغط أو التوتر، اشرب الكثير من الماء.

وكنت أندهش ونحن نزور بيوت أبناء الريف في الصين، ويشيرون إلينا أن نجلس وبعد لحظات يقدمون لنا أكوابًا صغيرة بها سائل دافئ لا طعم له، وكنت ألاحظ أن هؤلاء الريفيين ليس على وجوههم أي معنى، لا ترحيب، ولا ضيق، وإنما استسلام للأمر الواقع، والأمر الواقع هو أن عددًا من السياح قد هبطوا عليهم، ومعهم مرافق دائم الابتسام هو الذي يقودنا ويقرر ويكرر ويدعونا.

ولم نسأله عن هذا الشراب، بعضنا قال إنه شاي أخضر خفيف جدًا، وهو يقول خفيف لأن به رائحة الشاي، وهذه الرائحة ليست في السائل الدافئ وإنما في الكوب، فالذي قدمه هو ماء دافئ والأثرياء يضعون في الماء سكرًا أو عسلاً وبذلك يكون تأثيره أقوى في تهدئة

الأعصاب واسترخاء العضلات والنوم إذا أردت. وفي تعبيراتهم أن فلانًا فقير لدرجة أنه لا يجد الماء لضيوفه!

بعض الناس يخاف من تناوله للماء الكثير أن يجعل له كرشًا، غير صحيح، أن الماء يزيد الوزن – غير صحيح– فجسم الإنسان كأنه حوض من الماء وفي هذا الحوض ما لا نهاية له من الكائنات المجهرية، فأكثر من نصف وزن الإنسان ماء، وهو الموجود في الدم وفي العرق والضروري لكل التفاعلات الكيماوية، وفي هذا الحوض توجد البكتيريا والميكروبات التي تعيش فينا وعلينا، وفي الماء كل المعادن الحيوية، مثلا يوجد بالجسم الإنساني كمية من الفوسفور تكفي لصناعة ثلاثمائة عود كبريت، وفيه من الحديد ما يكفي لصناعة مسمار طوله عشرة سنتيمترات.

وقد كان بقراط الحكيم سابقًا لزمانه بألوف السنين، فكان إذا ذهب لعلاج أحد سأل: ماذا يأكل؟ وماذا يشرب؟ ومن أصدقاؤه؟ ومن أعداؤه؟ ويسأل عن آخر مرة تشاجر فيها مع زوجته أو أمه أو أولاده.

وكان يضع بجواره إناء به ماء وكان يوهم الناس بأنه قد أذاب الكثير من الأملاح السرية، وعرفوا فيما بعد أنه لم يكن يقدم إلا كثيرًا من الماء، وكان يلقي بالماء خارج البيت فكانوا يقولون: إنه أراد أن يحتفظ بالسر لنفسه.

ولم يكن سره إلا الماء القراح!

شائعات تجعل الحبة قبة!

هناك نوعان من الشائعات: شائعات سمعية وشائعات بصرية، فالشائعات السمعية هي أن نسمع حكاية ونتناقل هذه الحكاية ونضيف إليها.. وبذلك تصبح الحبة قبة – كما يقول المثل، وتظل هذه الشائعة تكبر حتى يؤكد الناس أنهم سمعوها من مصدرها الحقيقي.. وقد يمضي وقت طويل قبل أن نكتشف أنها خرافة لا أساس لها.

وهناك شائعات بصرية، فقد أشيع في القاهرة أن «برج الجزيرة» يوشك أن يقع، وقد حدث في إحدى مباريات كرة القدم بالقرب من البرج أن رأى الناس أن البرج يوشك أن ينهار فوقهم فهربوا وبقي البرج راسخًا كما هو.. وأشيع أيضًا أن فندق هيلتون رمسيس قد مال بسبب أن الأرض قد مالت تحته.. وجاء الناس من كل مكان يتأكدون بأنفسهم أن الفندق قد مال، ولم يحدث شيء من ذلك، وأن الفندق قد أقيم على أسس علمية ثابتة.

وكانت لي تجربة شخصية، فقد رويت قصة ثلاثة من كبار المستشارين في مصر أثناء عودتهم من مطار القاهرة أن رأوا سيدة تعترضهم وشعرها مبلل منكوش، فخلع أحد المستشارين البالطو ووضعه على كتفيها ثم ذهبوا إلى حيث أرادت وظلوا ينتظرونها حتى

تبعث لهم بالبالطو، ولكنها لم تفعل فراحوا يدقون الباب فخرج لهم رجل كبير في السن يسألهم. ثم دعاهم إلى الجلوس وأشار إلى صورة على الحائط فقالوا إنها صاحبة الصورة. وكانت المفاجأة أن صاحبة الصورة قد ماتت منذ عشرين عامًا.. ثم ذهب بهم إلى المقابر ليجدوا البالطو فوق قبرها..

وأصيب سكان القاهرة بالفزع ولم يعد أحد يمشي أو ينطلق بسيارته في الشارع الذي وقع فيه هذا الحادث الغريب..

أما الذي حدث في كثير من المدن المصرية.. أن حكى الناس مئات الحكايات لفتيات وقفن بملابس مبللة وأن كثيرين ذهبوا إلى بيوتهن ووجدوا الفساتين والبلاطي والأحذية في المقابر.. نفس الحكاية تكررت أكثر من مائة مرة..

وكنت ألاحق الناس بالمصورين، وكان الناس يؤكدون أنهم رأوا وسمعوا وقالوا وقيل لهم..

وظهرت حالات التسمم في المدارس المصرية بعد أن نشرت الصحف أن حالات تسمم قد ظهرت في نيجيريا.. حيث أغلقت المدارس، ولكن ثبت علميًا وطبيًا أن الأطعمة ليست سامة لا في مصر ولا في نيجيريا.. وأنه لا داعي لفتح المستشفيات وإغلاق المدارس.. وإنما هي شائعات بصرية وسمعية معًا!

سعد باشا قال إيه؟!

في مصر عبارة تدل على اليأس. فإذا قيلت فقد انحسم موضوع المناقشة. تقول: سعد باشا قال إيه؟! – وبس!

أما سعد باشا فهو الزعيم المصري سعد زغلول نسبوا إليه أنه على فراش الموت قال: مفيش فايدة: وهي عبارة معقولة أن يقولها أي إنسان مريض. أنه لا فائدة من العلاج أو لا فائدة من الشكوى أو من التفاف الناس حوله؛ لأن الموت شخصي؛ فلا أحد يموت بدلاً من أحد.

والذين شهدوا سعد باشا قالوا إنه لم يقل هذه العبارة وإنما قالها آخرون ثم رددها سعد باشا، فنسبت العبارة للأكبر والأعلى صوتًا!

ويقال أيضًا إن إحدى عبارات الثورة الفرنسية كانت: لن نبرح هذا المكان إلا على أسنة الرماح. والعبارة سجلها التاريخ للذي قالها بصوت مرتفع، والحقيقة أنها لواحد آخر همس بها.. والتاريخ سمعه ثقيل وبصره كليل.. ولذلك نسبت لمن رفع صوته بها!

وأيضًا تعبير (الستار الحديدي) قد كررناه بعد أن أعلنه الزعيم البريطاني تشرشل سنة 1946 ولكن التاريخ يقول لنا إن هذا التعبير قد استخدمه فوت لروسيك الألماني قبله بسنة، واستخدمه المؤرخ

[illegible].. ومثل الدوق الحديدي اي القائد والينجتون، ومثل السيدة الحديدية مرجريت تاتشر.. ومثل العروس الحديدية وهي أحدث أدوات التعذيب في العصور الوسطي. وهي عبارة عن صندوق له أبواب يطبقونها على إنسان مسكين فتستقر المسامير في كل جسمه وينزف حتى الموت.. وقد استخدم الألمان صورة أخرى من هذه العروسة. ويقال في سجون عبد الناصر في مصر ما يسمى بالقبر الواقف.. وهو صندوق له باب محدب يغلقونه على الضحية فتحطم قفصه الصدري حتى الموت!

وفي مصر تعبنا في إقناع الناس أن ضريح سيدنا الحسين في مصر خال تمامًا من سيدنا الحسين الذي لا جاء إلى مصر ولا دفن فيها، ولكن أحدًا لم يقتنع.

وما زلت أتمنى!

كل المفكرين يشعرون في أيامهم الأخيرة أنهم لم يقولوا كل ما كانوا يريدون، وأن في نفوسهم وقلوبهم وعقولهم شيئًا كانوا يتمنون الإفصاح عنه.

كان أستاذنا عباس العقاد يتمنى أن يتسع العمر فيكتب عن (فلسفة الجمال)، وعلى فراش الموت قال لي إنه يتمنى أن يقدم شرحًا عصريًّا للقرآن الكريم وأن يبدأ بسورة النور، وأقنعت الأستاذ العقاد أن يبدأ، فوافق فاتصلت بوزير الإعلام د. عبد القادر حاتم، واستعدت الكاميرات للانتقال إلى بيت الأستاذ العقاد لنسمع ما لم يقله أحد، وقبل أن تنتقل الكاميرات إلى البيت سبقها ملك الموت - يرحمه الله.

وكان أستاذنا د. عبد الرحمن بدوي يريد أن يتوسع في العلاقة بين الصوفية والوجودية وسمعت منه كلامًا عجيبًا، وكان في نيته أن يؤلف كتابًا عن (محمد) ﷺ وأن يقوم بتصحيح كتب السيرة فيقدم لنا صورة فلسفية بديعة، سمعت منه بعض ملامحها، وكثيرًا ما تمنيت أنا أيضًا أن يكون لي كتاب عن الرسول ﷺ لولا أن ألوف الكتب قد صدرت عنه، فلم يبق شيء لم يقله أحد، ولكني قدمت ترجمة لكتاب جعلت عنوانه «الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله»، وعندما

أصدرت كتابي (طلع البدر علينا) أعدت هذه الأمنية، ولم أفعل، فالله لم يفتح عليَّ بعد.

وبعد حرب 1973 كانت هناك نية من المشير عبد الغني الجمسي أن نؤلف معًا كتابًا عن (حرب أكتوبر) يكتب هو عن الجانب العسكري وأكتب أنا عن الجانب السياسي، يرحمه الله، وتكرر هذا الأمل مع المشير عبد الحليم أبو غزالة، وبقي أملاً لم يتحقق.

وصديقي العالم الأثري كمال الملاخ كان هو صاحب فكرة أن نؤلف عددًا من الكتب معًا، واتفقنا على بعض خطوطها، ولكني وجدت صعوبات كثيرة في تحقيق هذه الأمنية، فالشخصيات التي كنا قد اتفقنا على الكتابة عنها لم نتفق عليها تمامًا، ولنا آراء مختلفة، ولا نعرف كيف يكون كتاب نمدح في جزء منه نفس الشخصية ونهاجمها في الجزء الآخر، واكتفينا بهذه الأمنية.

وأول من عرض فكرة كتاب مشترك هو أستاذي المستشرق الألماني باول كراوس، وقد رفضت العرض بسرعة، فأنا لا أرقى إلى مستواه العلمي، ولا أجرؤ أن أضع اسمي إلى جوار اسمه، وكان من رأيه أن يكون كتابنا عن (ابن الهيثم)، وشكرته على حسن الظن، وإن كنت أتمنى أن أصدر عنه كتابًا وحدي، ولا زلت أتمنى!

من حق الشعوب أن تعرف!

هل من حق المواطن الإنجليزي أن يسأل لماذا وجْهُ رئيس الوزراء توني بلير، دائم اللمعان والنضارة، من حقه أن يسأل، وواجب على رئيس الوزراء أن يجيب، فأجاب المستشارون بأن رئيس الوزراء يستخدم دهونًا لنضارة البشرة حتى يبدو في أحسن صورة في التليفزيون، ثم أن هذه أموال دافعي الضرائب، وأنه قد كلف الدولة في سنوات حكمه حوالي المليون جنيه، وأن هذا قانوني تمامًا!

وفي مصر حدث أن تزوج محمد نسيم باشا فتاة نمساوية يكبرها بخمسين عامًا، هو حر، وقد ثار عليه أهله، ولكنه أصر، ففرضوا عليه حجرًا وقالوا إنه رجل سفيه، وأثبتوا ذلك طبيًّا، فذهب هو إلى أوروبا وأثبت عكس ذلك، واندهشوا في مصر ووقفوا عند هذا الحد.

ولكن عندما تزوج الزعيم المصري مصطفى النحاس باشا من الآنسة زينب الوكيل سنة 1934 التي تصغره بخمسة وعشرين عامًا ثار الكاتب الكبير عباس العقاد وهاجمه بعنف وتساءل الناس: وأنت مالك؟!

فكان رد العقاد، بل هذا شأني ويجب أن يكون شأنكم لأن رجلاً يحكم مصر سوف تحكمه وتلعب به فتاة صغيرة، فالأمر يجب أن

يعنينا جميعًا. وعندما انشق الزعيم السياسي مكرم عبيد باشا عن النحاس باشا أصدر (الكتاب الأسود)، وهو يتضمن كل التصرفات الخاطئة لهذه الفتاة الصغيرة، فلو كان النحاس باشا تزوجها واعتزل الحكم وتفرغ لها، ما كان من حق أحد أن يقول له: تلت التلاتة كام؟

وفي بريطانيا عندما تأخر الأمير تشارلز في الزواج سألوه على الشاشة: ولماذا؟ فقال: ولكن الناس يريدون أن يعرفوا إن كان ولي العهد شابًّا سويًّا، فلم يكن عمه أدوار الثامن سويًّا، فأكد للشعب ذلك، وقال لهم إن والدته تنهره كثيرًا لأنه يسهر إلى ساعات متأخرة من الليل وأن له صديقات كثيرات، يعني لا خوف.. إنه رجل!

وحدث نفس الشيء عندما لم يتزوج رئيس وزراء بريطانيا إدوارد هيث الذي توفي أخيرًا، سألوه: وأنت لماذا لم تتزوج؟ فعرض في التليفزيون صورًا لصديقات له في فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية، وأنه رجل كامل الأوصاف - وليس سكّيرًا ولا مدمنًا ولا مقامرًا - أي بلا نقاط ضعف يمكن الضغط عليها فتلتوي قراراته المصيرية!

الباحث السعودي: مؤكد!
الباحث المصري: مستحيل!

أهداني الأمير سلمان أمير منطقة الرياض كتابًا، وأهداه قبل ذلك إلى الرئيس مبارك، الموضوع: هل ذو القرنين الذي ورد في القرآن الكريم هو الملك أخناتون؟ وهل يأجوج ومأجوج اسمان لشخصين أو مكانين؟ ثم أين مشرق الشمس وأين مغربها كما جاء في القرآن الكريم أيضًا.

الكتاب اسمه (فك أسرار ذي القرنين ويأجوج ومأجوج – أصلهم – زمانهم – أوطانهم) في 422 صفحة ومزود بالخرائط والصور، وأمضى المؤلف خمس سنوات من المعاناة في التاريخ الفرعوني والصيني والمفسرين واللغة المصرية القديمة واللغة الصينية ثم الذهاب إلى الصين وإلى جزر المالديف. المؤلف هو حمدي بن حمزة أبو زيد عضو مجلس الشورى ورجل أعمال.

وقد اهتدى الباحث إلى أن يأجوج ومأجوج كلمتان صينيتان وترجمتهما عبارة عن ست كلمات هي: سكان قارة آسيا وسكان قارة الخيول.. وهي أماكن جغرافية ذهب إليها المؤلف ورأى وتحقق.

أما التحدي الكبير في هذا البحث الشاق فهو أن المؤلف وجد تشابهًا وتطابقًا بين صفات ذي القرنين والملك الفرعوني أخناتون، وأن (ذو القرنين) قد عاش في نفس الوقت مع أخناتون وموسى عليه السلام، وأن هناك كثيرًا من الصفات والتصرفات والتوجهات من ذي القرنين وأخناتون. ويرى الباحث السعودي أنهما شخص واحد، وأن أخناتون قد ذهب إلى الصين وأنه هو وزوجته نفرتيتي قد دفنا في الصين، والدليل على ذلك أن الفراعنة قد سافروا بسفنهم الكبيرة إلى جزر المالديف، وأن هذه السفن قد بلغت الصين.

وأن الباحثين لم يعثروا على قبر أخناتون ولا زوجته نفرتيتي في مصر، فقد اختفيا تمامًا، وعلى ذلك فليس صحيحًا أن (ذو القرنين) هوالإسكندر الأكبر أو هو أي ملك حكم العرب والفرس، وربما جاءت هذه التسمية من أن له ضفيرتين من الشعر.

وقد استعان الباحث السعودي بمراجع كثيرة أجنبية وعربية وفرعونية أيضًا حتى مضى في هذا التحدي وانتهى إلى هذه النهاية التي لم يسبقه إليها أحد.

وقد سألت د. زاهي حواس عالم المصريات الشهير فأجاب بصورة قاطعة: لا.. فهناك مقبرة لأخناتون وهناك مقبرة لنفرتيتي، ولم نجد لهما مومياء، وكثير من المقابر نهبها اللصوص ولم نجد بها لا تابوتًا ولا مومياء.

ثم رجاني أن أطلعه على هذا الكتاب، وقد فعلت، وأنتظر كلامًا علميًا موثقًا!

الذي مات من الضحك!

كان إسماعيل ياسين الفنان الكوميدي صديقي، إنه رجل بسيط، لا عنده علم ولا هو صاحب فلسفة، وإنما لديه هذه القدرة على إضحاكك، ولا يزال يضحكنا، فإذا ظهر له فيلم على الشاشة اجتمع كل صغار وكبار الأسرة ليضحكوا من جديد، فقد رأوا هذا الفيلم مرات عديدة، ولا يزال إسماعيل ياسين قادرًا على إضحاكنا وبسهولة.

وكان إسماعيل ياسين يظهر على المسرح كل ليلة وينفرد بالمسرح وبالمشاهدين ساعات، وهو عمل شاق، والناس يضحكون، وفي نهاية كل ليلة يرتمي إسماعيل ياسين مرهقًا مهدود الحيل، وأحيانًا يبكي من شدة الألم، ويسعده أن يضحك الناس.

ومن أكبر عذابات إسماعيل ياسين إعجاب الرئيس السلال به.

وكان الرئيس مريضًا في أحد مستشفيات الإسكندرية ولا أحد يضحكه أكثر من إسماعيل ياسين، ولا يستطيع إسماعيل ياسين أن يذهب إليه كل ليلة ليضحكه، سبع ساعات بالسيارة ذهابًا وإيابًا، ليظهر بعد ذلك على المسرح حتى الساعات الأخيرة من كل ليلة، ولكن السلال يصر على ذلك، وكانت رياسة الجمهورية تضغط على إسماعيل ياسين، فكان يذهب إلى السلال نائمًا طول الطريق، ولم يكن

هذا هو العذاب الوحيد وإنما أن يطلب إليه إلقاء عدد من النكت، وكان ذلك سهلاً، ولكن الصعب أن يطلب إليه أن يقول نكتة واحدة كلما جاء للسلال ضيوف!

وأنا الذي أقنعت محافظ السويس، وهي بلد إسماعيل ياسين، أن يجعل له ميداناً باسمه، وأن يقيم له تمثالاً وأن يطلق اسمه على كثير من المؤسسات الفنية والمسرحية، وفعل، وأهل السويس مثل أهل الجزائر، لا يضحكون كما يضحك أهل المغرب وبورسعيد، فكأنَّ إسماعيل ياسين قد سلبهم الضحك وقدمه لمصر وللعالم العربي.

وقبل موته كان يقول: ولا يهمك، أنا لن أخاف من عزرائيل، فقد أعددت له ألف نكتة، فسوف أموت كما عشت، من الضحك!

الحب والقطط والكلاب!

كانت بين الأستاذين عباس العقاد، ومصطفى صادق الرافعي خصومات عنيفة، وقد أطلق الرافعي على العقاد لقب كاتب (المراحيض) فقد جاء في قصيدة للعقاد في رثاء كلب:

كان مرحاضه أعز أثوابنا

والمعنى مفهوم ويصدر عن رجل يحب الكلاب!

وغضب الناقد المؤرخ عالم الموسيقى د. حسين فوزي عندما داعبه أحد الفنانين وقال: إنه في يوم من الأيام رأى عددًا من الكلاب تنطلق في اتجاه وزارة الثقافة، أما السبب فهو أن د. حسين فوزي قد وصل إلى مكتبه!

وهو يشير إلى أن د. حسين فوزي وزوجته الفرنسية عندهما أكثر من ثلاثين قطًا في البيت، وأن الكلاب قد شمت رائحة القطط، وقبل أن يموت د. فوزي ترك شقته بما فيها من متاع وكتب لخادمه، وأعطاه مبلغًا من المال، وأوصاه ألا يقسو على القطط، وإذا ماتت أن يدفنها برفق واحترام!

وكان أستاذنا د. لويس عوض يملك أكثر من خمسين قطًا، وأعظم تحية هي التي يلقاها كل من يذهب لزيارته، فلايكاد يفتح الباب

حتى تخرج أسراب من القطط، ألوان وأشكال وأحجام لتحية الضيف، وتجلس بسرعة على كتفيه ورجليه وكلها تشمشم فيها، ثم تصرفها السيدة حرم د. لويس عوض، ثم تناديها واحدة واحدة لتقديم واجب الاحترام للضيف، وكان د. لويس عوض يقول: أنا لم أعد استخدم العطور، فرائحة القطط أقوى!

وكان تشرشل لا يأكل إلا إذا جاءت قطة وجلست على المائدة، وكذلك الأديبة الفرنسية كوليت، أما الشاعر الإيطالي بترارکه فقد صنع تمثالاً للقطة، وكتب عليه: قطتي هذه بعد لورا - ولورا هي معشوقة الشاعر.

وهناك من يكرهون القطط ويطاردونها بالنار، فالموسيقار برامز كان يقف في النافذة ليطلق الطوب والحجارة على القطط في البيوت المجاورة. وأيزنهاور كان يطلق الرصاص بالقرب منها، والشاعر شيلي قبل أن ينام يتأكد تمامًا من أنها ليست تحت السرير، ويستر صاحب القواميس الشهيرة قال: إن كل ما جاء عن القطط في هذه الموسوعة ليس من تأليفي، ولا راجعته.

وفي إحدى المرات لاحظ الحراس على باب نابليون أنه يصرخ ويلعن، واقتحموا الباب ليجدوا أن قطة تسللت إلى غرفة الإمبراطور فأمر بإطلاق الرصاص عليها خارج القصر.

وكان للرئيس محمد نجيب أول رئيس لمصر بعض الأشجار في الحديقة مكتوب عليها: هنا يرقد أعز أصدقائي!

من القطط والكلاب!

أول وآخر سيجارة!

أول سيجارة أدخنها كانت بضغط عنيف من الرئيس الكوبي كاسترو، فقد شاركت في مؤتمر القارات الثلاث في هافانا، والتف الصحافيون حول الرئيس كاسترو يداعبونه ويداعبهم، وكان يدخن سيجارًا ضخمًا فخمًا، وليس غريبًا، ففي بلاده يزرعون بوفرة وكثرة الطباق والبن وقصب السكر، ويشربونها معًا، فمن تقاليد التدخين شرب القهوة أيضًا. وكوبا تطحن السكر مع البن، وعندما كنا نريد أن نشرب القهوة السادة كنا نذهب إلى السفارة المصرية.

وقد لفت أحد الزملاء نظر الرئيس كاسترو إلى أنني لا أدخن ولا أشرب القهوة، طبعًا هو يرى ذلك كفرًا وتجاهلاً لأعظم تقاليد بلاده، ورفع يده ونادى وطلب علبة سيجار تشرشل، وفي لحظات جاءت العلبة وفتحها بأظافره وبدأ يعلمني كيف أدخن، وهو لا يتصور أنني لا أدخن إطلاقًا، وإنما ظن أنني لا أقوى على السيجار، وبسرعة ظهر فنجان القهوة الذي يغمس فيه السيجار وانتظر لحظات ثم قضم السيجار ووضعه على الأرض، وبدأ يدخن ويشرب القهوة معًا، وعلمني كيف أفعل مثله.

ولأول مرة أذوق السعال – أقصد لفافة السيجار – وأسعل وأسعل، وهنا كادت تخرج روحي. ولم يلتفت كاسترو إلى الذي أصابني، بينما ضحك الزملاء. وبعد أن سكت السعال أشار بأن أمضي في التدخين، فهذه هي البداية، ولا سعال بعد ذلك وإنما لذة المزاج.

ولم أفلح في أن أجعل التدخين عادة، حاولت، بدلت بالسجائر السيجار، ولم أفلح، وكنت أرى صور الذين يفكرون على الشاشة لا تجيء إليهم الأفكار المضيئة إلا في سحب الدخان الذي يملأ الشاشة.

وكنت أرى الصحافيين التوءم، مصطفى أمين وعلي أمين، يشعلان سيجارة واحدة عند النهوض من الفراش، ثم يشعلان واحدة من واحدة، خرطوشة كل يوم وسجائرهما بلا فلتر، وكان علي أمين يقول إنه يفعل ذلك توفيرًا للكبريت.

وقالوا محذرين: أنت لا تشعل سيجارة.. أنت تشعل عمرك!

واقتنعت!

الذين اختاروا أسماء أفضل؟

نحن نولد في ظروف سبقتنا، فلا أحد قد اختار أبويه أو دينه أو لغته أو طبقته، ولكن يستطيع بعد ذلك أن يغير، كأن نغير أسماءنا مثلاً، فهناك عائلات: القط والفار والذئب والثعلب والنجار والحداد والبناء والبزاز والحشاش والبواب. وكنا صغارًا عندما تساءلنا ولماذا لا نغير أسماءنا ونختار أسماء أمهاتنا؟ ولو كنت فعلت لكان اسمي: أنيس الباز، ولا أعرف كيف فكرنا، وكيف انشغلنا عن ذلك، وكانت فكرة التغيير رفضًا أو احتجاجًا على من اختاروا لنا أسماءنا، ولكن لم نذهب إلى أبعد من ذلك، ولما كبرنا عرفنا أن عددًا كبيرًا من العظماء قد اختاروا أسماء أمهاتهم، وخلعوا أسماء الأب، لماذا؟ لا أعرف، ومتى؟ لا أعرف، هل قبل أن يكونوا مشاهير؟ أو هل كان لديهم إحساس قوي بأنهم سوف يكونون شيئًا هامًا يستحق أن تتغير من أجله الأسماء، وكانت أسماء الأمهات أحسن وأجمل وأقوى من أسماء الآباء.

أما الذين غيروا أسماءهم من الأدباء الكبار فهم: شيكسبير وجيته وهمنجواي وشو وديكنز، ومن الموسيقيين العباقرة: بيتهوفن وموتسارت وباخ وفردي، ومن العلماء: أينشتين ونيوتن وأديسون

وفرويد، ومن الفنانين: شارلي شابلن، ومن رؤساء أمريكا: واشنطون وجونسون ولنكولن، أما الرئيس كلينتون فقد اختارت له أمه اسم زوجها الثاني، أما أبوه فقد مات وهو في بطن أمه.

وفي مصر اتخذت الفنانة كاميليا اسم صديق أمها، أما أبوها فقد هرب، ولذلك نجد مكتوبًا على قبرها: كاميليا كوهين مع أنها مسيحية، وكثير من المفكرين والأدباء قد اختاروا لأنفسهم أسماء مثل: فولتير والأديبة جورج صاند، وتوفيق الحكيم كان اسمه حسين توفيق، وعشرات غيرهم في كل اللغات، وكذلك عدد كبير من نجوم السينما والمسرح.

وقد اخترت لي أسماء كثيرة، فقد كنت أكتب أكثر من مقال في نفس الصحيفة والمجلة، فكان من أسمائي: شريف شريف، وأحلام شريف، وهالة أحمد ومنى جعفر، وأشهر اسم اتخذته وقتًا طويلاً في (روز اليوسف) هو سيلفانا ماريبللي، وعندما انتقلت إلى الكتابة في (أخبار اليوم) خشيت أن يستخدم أحد اسم سيلفانا فدبرت لها حادثًا أليمًا تحت عجلات إحدى السيارات في باريس!

قتلوهم وبكوا عليهم!

الضرورات تبيح المحظورات، أي إذا اقتضى الأمر ارتكبنا كل ما هو ممنوع أو محظور أو حرام، فالضرورات أقوى من كل شيء، ففي الحرب يقتل الجنود زملاءهم الجرحى حتى لا يقعوا أسرى، أو ينسفون أنفسهم؛ حتى لا يقعوا في أيدي العدو.

ويجد الطبيب وأهل المريض أنه لا حل أمامهم إلا الموت الرحيم، أي السماح بقتل المريض الذي يتعذب أمامهم ولا يجدون له شفاء.

وفي محاكمات زعماء النازية في نورمبرج عندما ذهبت زوجة قائد الطيران جورنج للقائه وقبلته أنفذت حبوبًا سامة من فمها إلى فمه، وانتحر حتى لا يلقي هوان التعذيب، وبعد وفاة جورنج كانت الإجراءات صعبة جدًا على كل من يلتقي بالزعماء الألمان، فلم يبق من كل المحكوم عليهم إلا رودلف هيس الذي ولد في الإسكندرية وكان السكرتير الشخصي لهتلر، والذي استدرجته المخابرات البريطانية، فنزل على أرضها يطلب مقابلة تشرشل لعقد صلح بين البلدين، بقي هيس هذا سجينًا وحيدًا في السجون الروسية حتى تجاوز التسعين من عمره، لم يمكنوه من الموت!

ومن سنوات حاكمت ألمانيا أحد الذين عزلتهم الثلوج في الجبال، وقد اعترف بأن الجوع دفعه إلى أن يأكل لحم زميل له، وحاكموه وأصدروا حكمًا بالسجن سنوات، مع وقف التنفيذ، فالموقف صعب والضرورة لها أحكام، ومن أحكامها أن يرتكب الإنسان ما ليس إنسانيًّا.

وعندما يقع الثعلب أو الدب في شباك الصيادين، لاحظوا أنه يظل يمزق بأنيابه ساقه أو ساقيه لينجو من الموت، فألغت كندا استخدام الشراك رحمة بالحيوان!

ومن أبشع الصور الإنسانية ما كان يفعله البريطانيون في حرب فوكلاند، فقد كانوا يطلقون النار على زملائهم الذين اشتعلت ملابسهم، لأن ذلك يكشف أهدافهم لقوات الأرجنتين، فكانوا يطفئون هذه النار الكاشفة بقتل زملائهم وهم يبكون، وعند نهاية الحرب اعترفوا وحوكموا مع وقف التنفيذ!

فكيف يحكم الشعب الأمريكي؟!

توفي أخيرًا السياسي البريطاني روبن كوك. كان وزيرًا للخارجية قويًّا، واعترض على الحرب ضد العراق. يقول الذين نعوه إنه أعظم سياسي بريطاني، ولكن شيئًا واحدًا يجعلني أتحفظ في أن يصير رئيسًا للوزراء، فقد كان يتسلق أحد الجبال، فسقط ومات، المعنى أن روبن كوك لم يعرف قدر نفسه، ولم يعرف إن كانت صحته وسنه تسمحان له بتسلق الجبال، فكيف يكون مسئولاً عن شعب..

وأتذكر رواية للأديب الألماني فريدريش شيلر، الرواية اسمها «الحب والدسيسة»، في هذه الرواية يرفض الأب أن يزوج ابنته لواحد جاء يخطبها، لماذا؟ لأنه تقدم لوالدها يطلب يدها، فقال الأب قولته الشهيرة: إن رجلاً لم يفلح في إقناع ابنتي بأن تتزوجه لا يهمني الثقة به!

ورفض هذا العريس!

وسمعت هذه القصة من الشاعر الروسي الجميل الشعر والنثر والصورة يفتشنكو، قال إنه ذهب يتناول عشاءه عند روبرت شقيق الرئيس جون كيندي، وكان سعيدًا بالأبهة والحفاوة التي لقيها، وجاءت لحظة شرب الأنخاب، فسألوه ماذا تشرب فطلب مشروبًا

معينًا، وسألوه أي نوع، فحدد النوع، فاعتذروا لأنه؛ ليس لديهم، فحدد اسمًا آخر، واعتذروا لأنهم لم يسمعوا به، واندهش الشاعر الروسي كيف تقابلون المشاهير من كل الأجناس ولا تهتمون بمزاج هؤلاء الناس! وأخيرًا وجدوا الصنف الذي يفضله الشاعر الروسي، وسألهم: هل نشربها على الطريقة الروسية أو على الطريقة الأمريكية، فسأله روبرت كيندي: وما الروسية؟ فأجاب: أن نحطم الكأس بعد أن نفرغ منها.

ففزع روبرت كيندي وقال: انتظر لحظة حتى أسأل زوجتي!

هنا يقول يفتشنكو: كيف لرجل لا يستطيع أن يقرر تحطيم كوب أن يحكم الشعب الأمريكي؟!

ومعه حق!

جنتي أن أعرف!

سألني التليفزيون المصري إن كان كتابنا الكبار الذين ألفوا كتبًا بديعة عن الرسول ﷺ سوف يدخلون الجنة، إنهم العقاد وطه حسين والحكيم والشرقاوي وهيكل باشا ومحمد صبيح.

فكان جوابي: أعتقد أنهم سوف يدخلون النار لا لأنهم كتبوا عن الرسول، ولكن لأنهم كسبوا كثيرًا من هذه الكتب، فقد تقاضوا أجرهم في الدنيا، وليس لهم حسنات بعد ذلك!

ولكن توفيق الحكيم وهو على فراش الموت قال لي أنا والفنان الكبير صلاح طاهر: أنا سوف أدخل الجنة.

فالله سبحانه وتعالى أعطاني عقلاً صغيرًا وعمرًا قصيرًا ودفعني إلى كون هائل لا أول له ولا آخر، وقد حاولت وأنا حسن النية، وعلى طول حيقولوا أدخلوا توفيق الجنة!

وفي الأيام الأخيرة لمرض الأستاذ العقاد قال: والله يا مولانا أنا ألفت سلسلة من العبقريات وألفت كتابًا عن الله، وهو أصعب الكتب، ولكني حاولت، وأرى أن هذا يكفي.

– يعني سوف تدخل الجنة يا أستاذ؟

– والله يا مولانا أنا أتمنى، (ونظر إلينا) وقال: لا تجعلوا جنتي جهنم بدخولكم! ها هاها.

وكنا على باب غرفة نوم أستاذ الجيل لطفي السيد باشا، عندما خرج من يضرب كفًا بكف ويقول: الراجل وهو بيموت تفتكروا قال إيه؟

قال: أعطوا الشباب مزيدًا من الحرية!

وطه حسين كان يداعبنا ونداعبه ويقول: إذا دخل العقاد والحكيم الجنة فسوف أدعو الله سبحانه وتعالى أن يؤجل دخولي حتى أنعم بالراحة قبل أن نتخانق نحن الثلاثة في الجنة أو في جهنم!

أما عبقري العباقرة في كل العصور نيوتن فقال: لا أعرف صورتي عند الناس، ولكن أنا على يقين من أنني مثل طفل على شاطئ محيط المعرفة، وجد زلطة ملونة فانبهر بها، أما محيط الحقائق التي لا أعرفها فظل بعيدًا يتدفق ويتخبط ويثور، لا أعرف عنه شيئًا، وجنتي هي أن أعرف!

وتوقف الهجوم على توفيق الحكيم

في يوم من الأيام هاجم الأستاذ الكبير محمد التابعي موسيقارنا العظيم محمد عبد الوهاب في سلسلة من المقالات الفنية عنوانها: فن حرامية!

يعني أن محمد عبد الوهاب سرق ألحانه من كبار الموسيقيين في العالم، عشرين جملة من بيتهوفن وخمسًا وعشرين من أوفمنباخ وافتتاحية من فردي ورقصة من موتسارت، ووجد الأستاذ التابعي من يقف وراءه، إلا أنا!

فقد رأيت أن محمد عبد الوهاب رجل مثقف، والثقافة تنتقل من فنان إلى فنان إلى أديب، ولا عار في ذلك!

وقد حدث هجوم كثيف على كاتبنا الكبير توفيق الحكيم، وقالوا: لص. والحقيقة أن مقلبًا قد وقع فيه الكاتب الكبير، فقد روى له أحد الصحافيين حكاية أعجب بها الحكيم، وجعلها مسرحية من فصل واحد، وكانت الفضيحة، فالزميل الصحافي حكي لتوفيق الحكيم قصة فيلم معروض في القاهرة في ذلك الوقت.

واستمرت الحملة على توفيق الحكيم.

وتصادف أن كان الرئيس عبد الناصر في روسيا، فلما عاد سمع بهذه الحملة، وتضايق وأوقف الحملة على توفيق الحكيم، ونقلوا عنه أنه قال: إنني عندما كنت في روسيا وجدتهم يتحدثون عن اختراعاتهم، أو الاختراعات التي لغيرهم ونسبوها لأنفسهم، فقد قالوا إنهم الذين اخترعوا الراديو، مع أن الذي اخترعه الإيطالي (ماركوني)، وإنهم اخترعوا الهاتف، مع أن الذي اخترعه الأمريكي (بل)، وإنهم اخترعوا السيارة، مع أن الذي اخترعها (فورد) الأمريكي، وإنهم اخترعوا الصواريخ، مع أن الذي اخترعها (فون براون) الألماني، فكيف نجرد عظماءنا من صفاتهم التي نفخر بها؟!

وربما كان هذا أصدق وأنبل موقف للرئيس عبد الناصر!

عصورهم الذهبية: أمامهم!

من 25 قرنا ونحن نبحث عن مكان قارة أطلانطس، وهذه القارة قد تحدث عنها فيلسوف الإغريق العظيم أفلاطون، وأنها كانت جنة الأرض، فيها العدل والخير والجمال، ولأسباب لا نعرفها غرقت هذه القارة، وأصبح الفلاسفة يرون فيها الأرض الموعودة والجنة المفقودة و(اليوتوبيا)، أي التي ليس لها مكان أو ليس لها نظير في كل شيء.

قالوا إنها في البحر الأبيض المتوسط، وقالوا إنها تجويف في المحيط الأطلسي، وقالوا إنها كانت حول جزيرة قبرص، وأخيرًا ومنذ أيام قال علماء المحيطات والآثار إنها عند مدخل جبل طارق.

وليست قارة «أطلانطس»، هي القارة الوحيدة التي كانت ولم تعد، أو التي قامت واختفت، ولم يبق من آثارها شيء، ولكن ظل الفلاسفة يتخيلون مكانًا يطبقون فيه أحلامهم في العدل والحرية والخير والجمال، وكان الفيلسوف أفلاطون يرى أن الدولة المثالية أو الجمهورية الخيرة أو المدينة الفاضلة كما قال الفارابي، أو «مدينة الإله» كما يراها القديس أوغسطين وغيره ممكنة.. وكان أفلاطون يرى أن الفيلسوف يجب أن يكون الحاكم؛ لأنه القادر على الفهم والوعي وتحقيق العدل بين الناس.

ويقال إنهم طلبوا من الفيلسوف أفلاطون أن يحقق المدينة المثالية الفاضلة في إحدى جزر اليونان.. أعطوه الجزيرة وحريته والناس.. ولم يفلح في أن يحقق شيئًا.. وكان ذلك دليلاً جديدًا على أنه ليس بالضرورة أن يكون صاحب النظرية هو أقدر الناس على تطبيقها.

وبقيت الشعوب كلها تحلم، وأكثر الشعوب إغراقًا في الأحلام: الأمريكان والروس.. الأمريكان يرون أن التاريخ أمامهم.. وأن العصر الذهبي أمامهم.. بينما شعوب أخرى تبكي على الذي فات.. لأن عصورهم الذهبية وراءهم.. والشيوعيون يرون أن العصر الذهبي أمامهم.. عندما تتوقف كل عجلات التاريخ، فلا حرب ولا ضرب ولا كفاح ولا صراع بين الطبقات.. هنا يتحقق العدل المطلق!

والبحث عن قارة أطلانطس ليس إلا بحثًا عن مخرج.. عن حل.. عن مكان أفضل وأجمل وأعدل!

وصار الكوكب الأحمر نقطة دم!

قرأت طويلاً، وتأملت وتمنيت، وعرفت موعد لقاء القمر والمريخ، ليس لقاء وإنما المريخ في دورانه واقترابه من الأرض – 34 مليون كيلو متر، سيقف في دورته التي تستغرق حوالى السنين، وسيكون في أقرب نقطة من الأرض، ولن يتكرر هذا المشهد إلا بعد 278 سنة، فلا أحد منا سوف يبلغ ذلك اليوم.

الموعد هو الساعة الثانية عشرة والنصف مساء. بتوقيت جرينتش، لا يهم فأنا لن أنام، وإنما قد شحذت معلوماتي وخيالي، وجلست في انتظار هذه اللحظة، أكلت بسرعة، وذهبت إلى حضور حفلة سوف تستغرق ساعة، ونظرت في ساعتي عشرات المرات، مع أن الوقت حتى هذا اللقاء الفلكي ما يزال طويلاً، ولكن حرمني من التطلع إلى السماء وكواكبها ونجومها وسدمها فتلخبط نهاري وليلي، وجلست وأنا أعرف تمامًا ما الذي سوف يدور حول من ليبدو كما لو كان ملتصقًا به.

والمعلومات على شبكات الإنترنت تقول: إن المريخ ذلك الكوكب الأحمر الدموي سوف يبدو إلى جوار القمر كأنه قمر آخر ويمكن رؤيته بالعين المجردة، وظهرت صور على شبكات الإنترنت، وظهرت أيضًا المعامل التي ألقيت على المريخ تتحرك.

والمريخ أحمر لأن أرضه من أوكسيد الحديد، ولكن لماذا المريخ؟ لأن العلماء قد اكتشفوا أخيرًا أن بعض الصخور التي تطوحت من هذا الكوكب وسقطت في القطب الجنوبي وفي اليمن بها كائنات (أحادية الخلية.

ويرى العلماء أن الحياة على الأرض جاءت من فوق، من المريخ، فكيف كانت البداية؟ وكيف يمكن أن تتصور الحياة في ألوف ملايين الكواكب الأخرى؟

ثم رأيت فوق، ومن خلال منظار مقرب متواضع نقطة حمراء وراء القمر الفضي، بقعة لإله الحرب: مارس، المريخ، ولم يكن إحساسي قصيرًا كهذه الجملة ولا عابرًا المريخ، وإنما شعور بالسعادة التي أضاعتها السحب والضباب والرطوبة والتراب والأضواء في سماوات مصر، فلم أعد قادرًا على قراءة الأخبار اليومية لملايين النجوم والكواكب فوق وحولي – فما أسعدهم الذين يعيشون في الصحاري وفوق الجبال!

القلب لا يمتلئ بالذهب!

طبيعي ألا أستطيع أن أكتب قصة على مقاس فاتن حمامة وعمر الشريف.. أو على مقاس أي أحد، فقد طلب مني الصحفي الكبير سعيد فريحة أن أختار قصة من كتاب قديم معه، وقال لي: اعمل قصة تصلح لفاتن حمامة وعمر الشريف.

ووافقت، ولم أعرف على أي شيء وافقت، واتفقنا على موعد آخر لكي يعرفوا إلى أين ذهبت وعن أي عقدة أو حبكة درامية وقفت، أوكي!

ولم نلتق، وكلما حاولوا أن نلتقي هربت، فقد قرأت الكتاب، ولم أعرف ما الذي أفعله، قصص، وإيه يعني؟ أنا أيضًا أستطيع أن أكتب قصصًا، وقد كتبت ونشرت المئات، ولكن وجدت في هذا الكتاب القديم عبارة عابرة هي التي استوقفتني، فكتبت قصة رومانسية، عنوانها: القلب لا يمتلئ بالذهب، وأهديت هذه القصة إلى (فرقة رضا للفنون الشعبية) ولا علاقة لها بفاتن حمامة أو عمر الشريف، ولم تحاول فرقة رضا أن تتبنى هذه القصة، وإنما أخذها التليفزيون المصري وجعلها سهرة، بطولة المطرب عبد اللطيف التلباني ومحمد رضا وآخرين.

وسألتني فاتن حمامة، وكان ردي أنني أعمل جادًا، وفعلاً كتبت قصة عنوانها: يعود الماضي يعود – ولا علاقة لها بفاتن حمامة، وإنما ظهرت مسلسلاً في التليفزيون بعد ذلك بعشرين عامًا في ثلاثين حلقة بطولة حسين فهمي!

فما الذي جرى؟

لا أستطيع أن أكتب لأحد، ولا أن أقوم بدور الترزي أجعل ما أكتبه على قدر فلان أو علان، بل وجدت حرصًا على الرفض وعلى أن أكتب لآخرين.

وفي يوم طلب مني الفنان الكبير سيد بدير أن أكتب مسرحية كوميدية، وأن يكون أبطالها فلان وعلان، وذكر عشرة من الأسماء، وسيد بدير صديقي، وعندي فكرة، وجلست وكتبت مسرحية كوميدية بوليسية، ولم يكن لها إلا بطلان اثنان لثلاثة فصول طويلة، ولا يظهر على المسرح أحد غيرهما، وإن كنا طوال الوقت منتظرين أن يظهر كثيرون، ولكن أحدًا لا يجيء، المسرحية اسمها (الأحياء المجاورة)، والبطلان حمدي غيث وسناء جميل.

وقد ضحك الجمهور كثيرًا، وراحوا يبحثون عني بين المتفرجين.

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم

يقال عن الأدباء الفقراء: لقد أصابتهم حرفة الأدب، مصيبة الأدب والقراءة والكتاب والعذاب بعد ذلك، فكلامهم حبر على ورق أبيض، يعيشون في أوهام الكبرياء والغرور والخلود، المصيبة أننا صدقنا أنفسنا أن الأدب هو الباقي وأن الأدب أبقى من الأديب.

وكان شاعر النيل حافظ إبراهيم يكرر دائمًا أنه أنبل الفقراء وأنهم لو أعطوه جبلاً من الذهب وديوان المتنبي، لاختار المتنبي!

وفي يوم قرأ حافظ إبراهيم أنهم فتحوا صندوق النذور في أحد المساجد فوجدوا به مئات الألوف من الجنيهات، فقال حزينًا على نفسه وكل الأدباء:

من لي بحظ النائمين بحفرة　　قامت على أرجائها الصلواتُ

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم　　وبألف ألف يرزق الأمواتُ!

وكان الشاعر الفقير السليط اللسان عبد الحميد الديب أيضًا، ولكنه أكثر كلامًا عن فقره وتعاسته وأكله وشرابه، وكان حاقدًا على كل من يملك أكثر، وما أكثرهم!

وله شعر عريان ملط، وكان ولا يزال من الصعب نشره، فنحن نحفظه ونتناقله مثل أشعار الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان والشاعرين المصريين محمود غنيم وحمام.

ولا أحد يعرف كيف عاش ومات عبد الحميد الديب، فقد تنقل بين كل الهيئات والوزارات، ولا يبقى إلا قليلاً، ولأن لسانه طويل فعمره قصير في أية وظيفة، وكل الذين ساعدوه شتمهم!

وفي يوم قابله أحد الأدباء وسأله وقد انتقل من حيث لا نعرف إلى العمل في دار الكتب، فقال له عبد الحميد الديب:

بالأمس كنت مشردًا أهليًا والیوم صرت مشردًا رسميًا!

أيهما الأفضل؟

ونحن صغار كنا نحلم بأن يكون لواحد منا رواق في الأزهر. عندنا علم وحولنا تلامذة ومريدون، وكنا ثلاثة: مصريان وواحد من أصل يوناني قرر أن يسلم.

هل كنا صادقين؟ هل كنا على دراية بما نقول؟ وكان من آمال والدي أن ألتحق بالأزهر، ألست قد حفظت القرآن الكريم كله من السابعة حتى التاسعة والنصف من عمري؟ ألست أحفظ الكثير من الموشحات والمدائح النبوية؟ وكنت أرى رأي والدي، أما أمي فقد رفضت رفضًا تامًّا أن أكون مثل عمي أزهريًّا، إنها تريدني أن أكون وزيرًا مثل أحد أقربائها الذي صار رئيسًا لوزراء مصر: إبراهيم باشا عبد الهادي.

ولا أعرف إن كانت أمي قد تركت البيت شهورًا بسبب مرضها أو بسبب الخلاف بينها وبين أبي على مستقبلي: شيخًا أزهريًّا أو رئيسًا للوزراء! وانتصرت أمي، ولا أعرف كيف، وإن كنت على يقين من قدرتها على الإقناع، وعرفت فيما بعد أن أمي هي التي دفعت في طريقي عددًا كبيرًا من الجيران من الشبان، مسيحيين ويهودًا، فكانوا أعز الأصدقاء، وعرفت التسامح، ولم يمر يوم واحد في حياتي لم أنطق

مائة مرة: يا جرجس، يا كوهين، يا مريم، يا سارة، ولم أتصور لحظة واحدة أن أمي كانت بهذا الذكاء والعمق، وأنها فتحت لي سبلاً بعيدة جدًّا.وكانت لها صديقات من كل الأديان، حتى إنني فوجئت بواحدة تقول إنها لا مسلمة ولا مسيحية ولا يهودية وإنما بهائية، ولم أعرف، ولا أمي عرفت معنى هذا الدين.

وعندما دخلت جامعة القاهرة والتحقت بقسم الفلسفة، تضايقت أمي عندما عرفت أنني عضو في جماعة الإخوان المسلمين في مدينة إمبابة، وأنني المسئول عن المكتبة، وأسعدها جدًّا أن صدر قرار بفصلي وعشرة آخرين من جماعة الإخوان المسلمين، لأننا ولأننا، مع أنني كنت منضبطًا وقمت بتكليف من مركز الإرشاد، أخطب في المساجد يوم الجمعة من كل أسبوع.

ولم تشأ أمي أن تذكر لي أن عددًا من أقاربها مشايخ في المساجد أو عندهم كتاتيب.

يرحمها الله، وفي هذه السن المتأخرة، لست على يقين من أن طريقي الطويل كان أحسن حالاً من طريقي إلى الأزهر دخولاً وخروجًا؟!

عذاب كل يوم: متعتي الوحيدة!

- شايف؟
- لا.
- وانت؟
- شايف..
- بوضوح؟
- الجانب الغربي..
- ..

ويطول الحوار كل ليلة. ولو دخل أي إنسان في خط التليفون، فلن يفهم أي شيء، ويحلو هذا الحوار في الساعات الصغيرة من الليل. كل ليلة. هو سعيد وأنا لست كذلك.. أما هذا الحوار، فبيني وبين صديق يعيش في تبوك بالمملكة العربية السعودية.. ونحن وضعنا أمامنا صورة القبة الفلكية لهذا اليوم، وهذا الشهر. وأما السماء في صحاري السعودية، فشيء رحيب جليل رائع مروع. كل النجوم، كل السدم، كل الطرق اللبنية في غاية الروعة. أما أنا، فإذا استطعت أن أرى شيئًا فبعد أن تنسحب من السماء سحابة بليدة كئيبة، وكثيرًا ما أصابني

اليأس.. فلا أطلب صديقي هذا الذي يملك تلسكوبًا إلكترونيًّا وأنا أيضًا. ولكنه يرى وأنا أرى بصعوبة.. ولا عندي مثل هذه الصحراء ولا هذه السماوات.

ويدفعني اليأس إلى أن أبحث عن القبة الفلكية على الإنترنت.. إنها صغيرة جدًّا، ولكن أكثر وضوحًا، أما هو فيراها بعرض وطول وعمق السماء – سبحان الله ما أعظمه! ما أروعه! إن النظر إلى السماوات يجعل الإنسان يتضاءل ويصغر! حتى يصبح في نصف هدومه.. في ربعها.. في واحد على مليون من نفسه.. إنها فرصة فريدة ليشعر الإنسان بأنه صغير.. وعلى الرغم من ذلك.. فهو يعرف أنه صغير، ولكن يحاول أن يكون كبيرًا عالمًا عليمًا غارقًا متعطشًا إلى مزيد من المعرفة بعينه المجردة والعدسات الإلكترونية واستخدام المحطات المدارية ليرى أقرب وأبعد وأعمق.

كان لنا صديق في جامعة لندن.. كان هاويًا مثلنا – أعتقد أن هذه الجملة غير صحيحة، لقد كان مثلنا عاشقًا للفلك، ولكنه ليس مثلنا، فقد كان على علم غزير بالفيزياء الفلكية والرياضيات، وكان يقوم بدور الإنترنت الخاص بنا، نسأله ويجيب. وأحيانًا نسأله فلا يُجيب، لأنه لا يرى ما نرى.

فسماواتنا صافية، وسماؤه ملبدة بالغيوم.. ويسأل..

لا أرد؛ لأن الهباب والتراب والسحاب في سماء القاهرة.. كلها مفردات لليأس من أن أرى أكبر متعة يوم في حياتي!

يا أخي أنا مبسوط كده!

كان الأديب الفرنسي الكبير بلزاك، يسكن غرفة ضيقة خانقة: لا هواء ولا ضوء، وقد استغرقه الإبداع تمامًا. وعندما يستريح من الكتابة يتسلى فيكتب على الجدران بالفحم مثل هذه العبارات: هنا توجد لوحة للفنان دافنشي، وهنا توجد لوحة للفنان رفائيل، وهنا سجادة جوبلان، ثم يستأنف الكتابة وقد وضع إلى جواره دلوًا من القهوة!

وكنا نضايق الأستاذ العقاد فنقول له: يا أستاذ أنت عندك أحدث كتاب عن الفلك، وأول مصباح غاز دخل مصر! فكان يتضايق ويتحدث عن الشقة الصغيرة التي يسكنها، ويقول: هذه الشقة لها مزايا فلكية. فالهواء يدخل من هنا، والشمس تدخل من هذه الناحية، والبلكونة يلتقي فيها النسيم والشمس نصف ساعة كل يوم!

يعني أنه سعيد بهذه الشقة، أما المكتب الذي يجلس إليه فصغير جدًا، وهو بالفعل يجلس إليه، إلى جانبه لأنه لا يستطيع أن يدخل ساقيه تحته، ولكنه راض تمامًا!

وكان الناس يسخرون من شاعر النيل حافظ إبراهيم، وكيف أنه يرتدي بدلة لا يغيرها، فكان يقول: لن أغيرها، لأن فيها صفتين: الوحدانية والقدم!

أما الرئيس السادات، فكنت كثير المداعبة له، لأن بيته صغير، والحديقة التي يصر أن يتمشى فيها ساعة وأكثر صغيرة جدًّا، وهي في حاجة إلى ثعالب أو غزلان لتقفز بين الأشجار، ولكنه لا يرى ذلك، إنه سعيد بأي مكان، ففي ليلة تناولنا العشاء على مائدة ملك المغرب، فلفتُّ نظر الرئيس إلى الأبهة والفخامة والذوق، وأن البيت الذي يسكنه بالقرب من القاهرة، لا يرقى إلى واحد على المليون من هذا المستوى، فتوقف السادات وقال لي مستنكرًا: يا أخي إنت عاوزني أكره حياتي ليه! يا أخي أنا مبسوط كده، والناس بتحسدني وبيقولوا: السادات عنده قصر، وفي القصر مرجيحة كمان!

يعني أنه مبسوط كده سواء في هذا البيت، أو أي بيت آخر، مع أنه دخل كل قصور الرؤساء والملوك، فهو سعيد بهذه الاستراحة المتواضعة!

لم أتعلم كيف أطفو؟

رأيت ومشيت وتمنيت وسرحت وتمددت على أجمل بلاجات الدنيا في أوروبا وآسيا وأمريكا، ولم أذهب إلى أبعد من الرمل، فقط بللت قدمي في الماء، فقد حاولت أن أتعلم السباحة فلم أستطع، ولا استطاع عظماء السباحة في مصر، يتقدمهم البطل العالمي أبو هيف، وكنت المستحيل أمامهم، لقد تخطوا عقبات البحار والمحيطات إلا أنا، فأنا ضد كل قواعد الطفو، فإذا نزلت إلى الماء ذهبت إلى القاع فورًا، كأنني كتلة من الحجر، أو كأنني الوحيد المسئول عن تطبيق قوانين الجاذبية الأرضية، قالوا: امسك يدك، شد وسطك، افتح صدرك، اترك نفسك وسوف يحملك الماء. وفعلت كل ما قالوا وغلبت جاذبية الأرض، كيف؟ قالوا كلامًا كثيرًا، قالوا الخوف، وقالوا الرغبة القوية عندي في ألا أتعلم، وقالوا: التعلم في الصغر كالنقش على الحجر، وفي الكبر كالنقش على الماء، ومع الأسف أنا غير قادر على النقش على الماء، فأنا أغيب تحته في لحظات، فلا نقشت ولا قرأت.

أحد المدربين قال، وهو رجل ريفي: شوف يا سعادة البيه، الجماعة اللي بيعلموك دول بتوع أكسفورد لا يفهمون، أنا سوف أعلمك على الأرض وليس في الماء، نم على الأرض شد ذراعيك وساقيك، وامسك اللوح الخشبي ده، سعادتك ما شفتش كلب يمسك

عظمة، امسك الخشب زي الكلب وسوف تعوم وتعبر المانش والمحيط كمان!

المرة الوحيدة التي نزلت فيها إلى الماء كانت في ميناء الحديدة باليمن، وكنا الأدباء: نجيب محفوظ ويوسف السباعي وصالح جودت ومحمود حسن إسماعيل، كلنا ارتدينا المايوه، ولم يكن الماء صافيًا، ولا أحد يعرف أنني لا أسبح، ووقفت في الماء أتفرج على الزملاء، وفجأة جاء صالح جودت من ورائي ودفعني إلى الماء، ووجدتني على الطين أصرخ، ولم يصدق أحد أنني أستغيث.

لقد قال فيلسوف عربي، لا أعرف بالضبط من هو، إن كان الفارابي أو ابن سينا:

لا أركب البحر أخشى   عليَّ منه المعاطب

أنا طين وهو ماء   والطين في الماء ذائب!

ولو كنت طينًا لذبت في الماء ثم تركني أترسب في القاع، ولكني من مادة لا هي حجر ولا هي حديد، وإنما هي مادة غير قابلة للطفو وغير قابلة لأن تتعلم كيف تطفو!

بعد موته كان مزعجًا!

من أيام تذكرت الشاعر اليمني عبدالله بن يحيي العلوي الذي أصدر كتابًا يهاجمني فيه عنوانه (أنيس منصور.. آه منه وآه عليه.. أكلني نيًا ودفنني حيًا).. فقد حدث أن أنيس منصور آخر قد حاول دفني حيًّا!

فقد انتشرت شائعة في مصر أنني دخلت المستشفى وأنني مت. وتساءلت وكالات الأنباء والصحف العربية.. وفجأة حدثني صديقي وزير الإعلام أنس الفقي.. ولم يقل لي لماذا هو يسأل عني بهذه اللهفة.. وسألني السيد أسامة سرايا رئيس تحرير الأهرام.. لماذا؟

إذن هي شائعة سخيفة..

ولتكذيب هذه الشائعة طلب مني وزير الإعلام أن أظهر في برنامج «البيت بيتك».. ثم نشرت الأهرام خبرًا أنني سوف ألقي محاضرة في البحرين بدعوة من وزارة الإعلام. واتصل بي سفيرنا في البحرين ونشرت الصحف عن موعد وصولي!

وفي اليوم التالي عرفت السبب، فقد توفي الأستاذ محمد أنيس منصور الشهير بأنيس منصور وصفحات طويلة عريضة من النعي من أقاربه وأصدقائه وشركائه..

ولولا أن محمد أنيس منصور قد توفي لرويت حكايات ومقالب كانت بيننا بسبب التشابه أو التطابق في الاسم.. ولم أكن أعرف أحدًا بهذا الاسم، لولا أن نبهني إلى ذلك الصديقات: زوزو ماضي وتحية كاريوكا وإسماعيل ياسين.. ولذلك وجدت من الضروري أن أنشر صورتي مع مقالاتي في أخبار اليوم والأخبار وآخر ساعة!

وكأن المرحوم محمد أنيس منصور لم يكتف بما كان بيننا فقرر أن يفعل شيئًا آخر بعد وفاته.. أن يدفنني حيًّا. وهو لم يفعل ولكن آخرين كثيرين من الأقارب والأصدقاء.. فكأن هذه المعارك الهزلية والسخيفة التي كانت بيننا كان الهدف منها أن يدفن أحدنا الآخر.

فلم ينتصر ميتًا ولا انهزمت حيًّا. يرحمه الله.

النجاح: فكرة ذكية!

قابلت في الفلبين سيدة سورية تبعث على الإعجاب. مات زوجها وكانت تبيع معه القماش بين الجزر – عدد جزر الفلبين سبعة آلاف جزيرة. عرفهما الناس، مات الرجل وعندها أطفال صغار. ولكن أهل سوريا ولبنان صنعوا من الصخر قوة وصبرًا وإرادة ونجاحًا في النهاية. هذه السيدة اشترت قطعة أرض خارج مدينة مانيلا.. والأرض بعيدة. ولأنها بعيدة فهي رخيصة.. وأقامت كنيسة. وبسرعة رصفت الدولة الطريق إلى الكنيسة وأضاءت هذا الشارع الجديد.. وتزاحم الناس على الكنيسة الجميلة. وبسرعة أقامت السيدة السورية مصنعًا بالقرب من الكنيسة وأقامت بيوتًا وعرضت منتجات مصنعها من الأدوات المنزلية!

وذكاء هذه السيدة أنها اخترعت شيئًا يجذب الناس: الكنيسة! وعندما ذهبت إلى هونج كونج وجدتهم يبيعون مرهمًا أو دهانًا لإزالة الصداع اسمه «مرهم النمر». وله حكاية، والحكاية أن رجلاً اخترع هذا المرهم وعالج به أحد الرهبان هو وأسرته. وطلب منه ثمنًا لذلك أن يقول للمصلين إن رجلاً مسكينًا قد اخترعه. وهو يوزعه مجانًا على من يحتاج إليه والرجل جالس أمام المعبد.. وكلما عرض عليه

الناس فلوسًا رفض. وصار الرجل مشهورًا. وفجأة اختفى الرجل شهرًا وشهرين.. وفوجئ الناس بأن دكانًا يبيع هذا المرهم. وقالوا إن الرجل مات وإن هؤلاء ورثته.. وحول هذا المكان أقيم حي ظل يكبر حتى صار أكبر الأحياء!

إنها فكرة ذكية خلقت حياة وتجارة رائجة.

وقد استطاع الصينيون أن يفعلوا ذلك بصورة أكبر. فعندهم جزيرة اسمها هينان.. وكانوا يسمونها: آخر الدنيا والآن يسمونها هاواي الشرق. وقد ابتكروا مناسبات لإحيائها وتنشيطها وجذب الدنيا إليها. فأقاموا فيها حفلات اختيار «ملكة جمال العالم».. أقاموا لذلك فنادق خمس وست نجوم.. وحدائق وأحواضًا للسباحة وملابس وتماثيل ومطاعم ومعاهد للجمال.. أي كيف تصبح الفتاة جميلة، وكيف يصبح من حقها أن تكون ملكة الجميلات في الصين، ثم بعد ذلك في العالم.. ثم أنشأوا معاهد الخدمة الفندقية.. وفنون السياحة واستقبال الضيوف ودراسة اللغات العالمية كاللغة الإنجليزية التي هي اللغة الثانية في العالم بعد لغة الماندرين الصينية التي يتكلم بها مليار نسمة.

فالنجاح فكرة.. والرواج فكرة.. انظر ماذا فعلوا في مونت كارلو وفي البندقية وفي جزر مايوركا وبربادوس وشرم الشيخ.

لا تقل: الزمن الجميل!

لا تؤاخذني فأنا ضقت جدًّا بمثل هذه العبارة: ذلك الزمان الجميل. أي زمان جميل، السابق أو الأسبق أو زماننا؟ والله لم يكن جميلاً في أي شيء!

ذهبت أتذكر الأيام الخالية من كل شيء جميل. ذهبت أرى «الكتاب» بتشديد التاء – الذي حفظت فيه القرآن الكريم سنتين ونصفًا، وقد رأيته قبل ذلك، وهالني ما رأيت، ولأنه هالني، لم أره بوضوح، عدت إليه فوجدته أصغر مما كنت أتصور، وأضيق وأظلم، فتساندت على الطين. ووجدت من يساعدني على الهبوط تحت الأرض، نصف هذا الكتاب تحت الأرض، وسألت إن كانت الأرض قد انخفضت عن أيامنا، فضحكوا وقالوا: بل ارتفعت!

لا تسألني كيف كنا، وكيف كنا نهبط الدرج وكيف ندلف حاني الرأس إلى الغرفة الوحيدة الأكثر إظلامًا، فالضوء والظلمة لا يهمان، فقد كان سيدنا أعمى: لا هواء ولا ماء ولا مقاعد، ولا أعرف كيف كنا نجيء كل يوم وكيف نخرج أو على الأصح كيف نبعث إلى الحياة كل يوم، بلا شكوى من أي شيء. وإذا شكونا فشكوانا مرتدة علينا. كيف نشكو ممن علمنا حرفًا؟ فما بالنا بالذي علمنا حفظ القرآن الكريم؟!

وكأنني لم أكتف بهذه الزيارة الموجعة، ذهبت إلى حيث كانت تعيش سيدة الغناء العربي أم كلثوم، فهي من قرية مجاورة اسمها «طماي الزهايرة» والزهايرة والباز أجدادي وأم كلثوم اسمها أم كلثوم إبراهيم البلتاجي وكلنا أقارب. سألت: يا أهل البلد أمال الست كانت تعيش فين؟

أشاروا وكأنهم ما أشاروا، فلم أجد إلا أطلالاً دارسة – كما يقول العرب– أين يا سادة كانت الست؟ قالوا: كانت هنا، فهنا كان لها بيت والبيت ذهب وتلاشى ترابًا، وأقيم هذا البيت فوق ما كان بيتًا لها، والشوارع مؤلمة، والدنيا مظلمة ومن هذه الظلمات خرج لنا وعلينا هذا الصوت الذي لا مثيل له عندنا أو عند غيرنا.

أعوذ باللَّه ويقولون: الزمن الجميل: أين هو الجمال في زماننا، بل الجمال في هذا الزمان؟! لقد مضى أكثر عمرنا لم نر السينما، ولا كنا نجد الكتب ولا كنا ننقل قدمًا عن قدم إلى أي بلد آخر، أما اليوم فالدنيا عند أطراف الأصابع، ومن مقاعدنا نرى الكواكب والنجوم ورحلات الفضاء، كل شيء هنا والآن: الطعام والدواء والأمان والمتعة: كتب وأفلام ورحلات، الله على هذا الزمان وأعوذ بالله من ذلك الزمان: زماننا!

نظرية كونية جديدة!

إن كان عندك قليل من الصبر.. فأرجو أن تقرأ. قال لنا علماء الفلك في عمر هذا الكون حوالي 14 ألف مليون سنة. وصدقناهم.

وإن هذا الكون بدأ بالانفجار الكبير، هذا الانفجار كان لذرة لامتناهية الصغر لا يستطيع أعظم المكبرات أن يراها.. ومن هذه الذرة الواحدة حدث «الانفجار الكبير».. ومن هذا الانفجار كانت كل الغازات والمادة التي في الكون: سحب من الغازات وسدم ومجرات ونجوم وكواكب، وبسبب هذا الانفجار أخذ الكون يتمدد، ولا يزال، بسرعة فائقة. وقالوا إنها ليست المادة التي تتمدد وإنما الفراغ. تمامًا مثل بالونة، ومن الغريب أن السدم والمجرات قد زادت سرعتها ولكن ما الذي كان في الكون قبل هذا الانفجار؟ لا نعرف. وكيف حدث الانفجار؟ وما المعنى؟ لا نعرف.

نظرية جديدة تقول: ولماذا انفجار واحد؟ لماذا لا يكون قد حدث ما لا نهاية له من الانفجارات؟ ولماذا يكون هناك كون واحد.. لماذا لا يكون ألف مليون كون؟ هل من الضروري أن تكون للكون بداية ونهاية؟ الجواب: ليس من الضروري.. لأن مبدأ البداية والنهاية هو مبدأ إنساني.. أي مبدأ العقل الإنساني.

ولكن من قال إن الكون يمشي أو يجب أن يمشي وفقًا لمبادئ العقل الإنساني؟!

كيف نفسر في الكون نجومًا أقدم من نشأة الكون نفسه، أو بعبارة أخرى كيف نفسر أن رجلاً له أولاد.. ومن بينهم أولاد أكبر منه في السن؟ فقد عثر علماء الفلك على نجوم عمرها أكبر من 14 ألف مليون سنة – أي من عمر الكون – إذن هي بقايا أكوان أخرى أقدم.

ما معنى كل ذلك؟ المعنى أن نظرية «الانفجار الكبير» لا يمكن أن تكون هي النظرية المريحة للعقل.. ولا يمكن أن نقفل الباب في وجه ما لا نهاية له من علامات الاستفهام.. لا بد أن نقول إن اللَّه هو الذي بدأ هذا الخلق، وإن البداية طاقة.. نور.. القرآن الكريم يقول: «اللَّه نور السماوات والأرض».. والتوراة تقول: «ليكن هناك نور، فكان النور».

أما عالمنا، أي المنظومة الشمسية، فهو يقع في القسم الجنوبي من مجرة اسمها (الطريق اللبني).. هذه المجرة بما فيها من ألوف ملايين النجوم هي واحدة من ألف مليون مجرة.. وهذه المجرة إذا قورنت بالكون نفسه، فهي مثل حبة حمص ألقيت في استاد لكرة القدم!

لا ترفعوا عيونكم عن الصين!

أشياء كثيرة تحدث في بلاد الصين، لا يمكن حصرها في السياسة والاقتصاد والتعليم والسياحة والصناعة والتسلل إلى أي مكان في الأرض، ثم هذا الشعور الجارف عندهم وهو أنه المستقبل، فالدول العظمى كلها شاخت إلا الصين، فإنها في الطريق الطويل العريض إلى القمر لتتسلم دورها القيادي، في مجال العلوم والبحث العلمي راحت الصين تدرس وتحلل: كيف تقدمت الدنيا وهي تلهث وراءها، فقامت جامعة شنغهاي بالدراسة المعروفة: أحسن 500 جامعة في العالم سنة 2003 و4 و5.. أهم معالم هذه الدراسة أن جامعة هارفارد هي أعظم الجامعات وكمبريدج هي الثانية، وأنه ولا جامعة عربية بلغت شرف أن تكون واحدة من الـ 500 بينما حصلت إسرائيل على سبع جامعات – عجبي!

وقد دعت الصين رؤساء الجامعات الإفريقية الناطقة باللغة الفرنسية لتدرس معًا كيف يمكن تطوير التعليم الجامعي، ومن مصر ذهب د. أبو ريان رئيس جامعة المنصورة، ولا بد أنها دعت كل رؤساء جامعات الدنيا.

وفي مجال الصناعة هناك أحداث باهرة ساحرة.. إن الصينيين في كل مكان في مصر يبيعون السلع الرخيصة بالتقسيط المريح، والحكمة العربية تقول: إذا لم يأت الجبل إليك فاذهب إليه، وهم ذهبوا إلى الجبل أو إلى الزبون يدقون بابه، ويبيعون كل الأنواع، ويقدمون المصنوعات والعمال الذين يرضون بالقليل من الطعام والفلوس.

عندما ذهبت إلى هونج كونج من خمسين عامًا قابلني شاب في المطار، وقال لي: بدلة من الصوف الحرير في 24 ساعة وبخمسة جنيهات. ولم يدع لي فرصة لكي أندهش، وإنما قال لي: لا تدفع أي شيء الآن، في مثل هذا الموعد سوف أكون عندك في الفندق.

وجاءني في الفندق، وقام بعدة قياسات، وفي الموعد المحدد جاءت البدلة، كيف؟ سألته: قال إن عشرة عمال يتقاسمونها: هذا لكم الجاكتة وهذا للبنطلون وهذا للزراير، وكلهم يعملون في وقت واحد.

ولكثرة العمال وضرورة أن يعملوا، لم تستخدم الصين الآلات الحديثة في مثل هذه الصناعات الصغيرة، وإنما جعلوا الآلات الحديثة للمنتجات الأكثر تعقيدًا، ولذلك كانت المنتجات الصينية وفيرة ورخيصة ولمئات الملايين في كل الدنيا!

خذ إجازتك ولا يهمك

إن لبدنك عليك حقًا – صدق رسول الله.

أي لا بد أن تستريح بالذوق حتى لا تستريح بالمرض. ونحن أقل الناس تطبيقًا لهذه الحكمة، أما غيرنا فالإجازة مقدسة، وفي التوراة: إن الله خلق العالم في ستة أيام واستراح في السابع، وعلى الناس أن يفعلوا نفس الشيء.

ولو عرفت الشعوب لفرضت على حكامها الإجازة: الراحة، فإذا استراح الحاكم كانت أحكامه معتدلة وقرارته متزنة. وليس غريبًا أن ترى الحكام يلعبون ويرقصون ويعزفون على الآلات الموسيقية مثل كلينتون وبلير. وكان إدوار هيث، رئيس وزراء بريطانيا، قائدًا للأوركسترا وقائدًا لليخوت أيضًا. إنها هواية وإجازة، وهو حر في ذلك. إن توني بلير، رئيس وزراء بريطانيا، قد أذهل العالم وأدهش الشعب الإنجليزي عندما أخذ «إجازة وضع» أي إجازة لأن زوجته سوف تضع مولودًا. وقالوا وأطالوا، ولكنه أخذ الإجازة التي منحها القانون وجلس إلى جوار زوجته حتى وضعت طفلها، ودهشة الناس سببها أنه في هذه السن وفي هذا المنصب كان عنده وقت ليحب ويكون أبًا!

ولم يعبأ بكل ما نشرته الصحف البريطانية عن خطورة مركزه وإصراره على الإجازة.

وفي كل سنة يأخذ إجازة عند أحد من الأصدقاء الأثرياء في اليونان أو في يخت في المحيط أو شرم الشيخ أو في جزر باربادوس، وتتبارى الصحف في نشر صورة زوجته وأولاده وأصدقائه وصديقات أولاده. إنه حر، وهذا حق لهم جميعًا.

أخيرًا مات أحد زعماء الحزب، وكان لا بد أن يمشي في جنازته أو يتلقى العزاء أو يذرف عليه دمعه، إن رأى ذلك ضروريًّا حزبيًّا أو إنسانيًّا، ولكنه لم يقطع إجازته، واندهشوا، وأصر على موقفه؛ لأن الإجازة حق لزوجته، وأولاده، وأنه إذا قطع الإجازة أفسد على زوجته وأولادهما حقهم في الحياة معًا، وبعث ببرقية تعزية. وقالت الصحف وكالت كلامًا موجعًا سخرية منه، ولكنه مضى في الفرفشة على الشاطئ وتحت الشمس يضع الكريمات ضد الشمس من أجل اللون البرونزي.

ومن خمسين عامًا أعلن عميد المؤرخين أرنولد توينبي أن الدنيا تغيرت في أمريكا وأوروبا والعالم عندما رفضت الموظفات في نيويورك العمل يوم الأحد بأجر مضاعف، والسبب: من حق الجميع أن تكون لهم إجازة أسبوعية.

اتركوني لبيت أبي!

مفاجأة: أصدر الفاتيكان كتابًا عن الأيام واللحظات الأخيرة في حياة البابا بولس الثاني، غريبة! لم يحدث ذلك من قبل، ويبدو أن السبب هو أن البابا بولس الأول توفي في ظروف غامضة سنة 1978، ولم يجلس على العرش البابوي سوى 33 يومًا، وكان لابد من توضيح ذلك «لمليار» من الكاثوليك في العالم، ولهذا قرر البابا الجديد بندكتوس بعقليته الألمانية، أن يقدم شهادة تاريخية على عذابات سلفه الكبير، فجاء في الكتاب أنه كان مصابًا بمرض الرعاش من عشر سنوات، وكان ذلك واضحًا، في كل مرة يلقي خطابًا ترتجف الأصابع والصوت.

في الأيام الأخيرة أعلن الفاتيكان أن البابا غير قادر على إقامة الصلاة، وقيل في أسباب ذلك أن عنده إنفلونزا، ولم يكن كذلك، ثم نقلوه إلى المستشفى بسبب «زغطة»، أو تقلص عضلي في الحنجرة، وخرج من المستشفى ليدخله يوم 31 مارس لعدة أسابيع، والذين كانوا حول البابا أيقنوا أن هذه هي النهاية، وتسربت الأخبار إلى الكنائس حول الأرض، وراحوا يصلون من أجله، وارتفعت درجة حرارته وأصيب بالحمى وأزمة قلبية.

ولم يبق عند الكرادلة الذين حوله والأطباء شك في أن هذه هي النهاية، وأصيب بالإغماء الطويل.

وبدأ وجهه يزداد إشراقًا وصفاء، وكلها علامات الوداع، وكان ينظر إليهم ولا يقول شيئًا، ولكنهم يدركون أنه قال كل شيء ولم يبق إلا الرحيل الهادئ.

وكل المؤمنين حول الأرض لا يريدون فقط أن يعرفوا كيف مات، وإنما يريدون أن يعرفوا آخر كلماته أو آخر حروف الوداع أو إن كانت له وصية ذهبية لكل الكاثوليك في الدنيا.

ولقد قال بلغته البولندية، وكان صوته خفيضًا، ولم تعد عنده طاقة لأن يرفع صوته، وإنما قال هامسًا وفي نفس الوقت طالبا أن يتركوه وحده مع اللهَّ، قال: دعوني أذهب إلى بيت الرب أبينا.

هذه كتب غيرت التاريخ!

هل تستطيع فكرًا أن تجيب عن هذا السؤال: ما أهم 12 كتابًا عربيًا كان لها أثر في الفكر العربي أو الإنساني؟ أول ما تبادر إلى الذهن: القرآن الكريم.. وبعد ذلك نتفق أو نختلف على كتاب «وصف مصر» الذي ألفه شباب الحملة الفرنسية، أو «مقدمة ابن خلدون» أو «رحلات ابن بطوطة» أو «الشعر الجاهلي» لطه حسين أو «ابن الرومي» للعقاد.

أما الإنجليز فقد اختاروا كتبهم التي كان لها أثر عميق في الفكر العالمي:

1- كتاب «الماجنا كارتا» أو الميثاق الكبير سنة 1215، وكان الأساس للحياة الديمقراطية في أوروبا.

2- الترجمة الحديثة السهلة للكتاب المقدس أيام الملك جيمس سنة 1617.

3- مسرحيات الشاعر العظيم شكسبير سنة 1623.

4- كتاب «مبادئ الرياضيات» للعالم العبقري نيوتن سنة 1611.

5- اختراع المغزل أو المكوك الميكانيكي لغزل القطن سنة 1769، وهو من دعائم الثورة الصناعية في أوروبا.

6- كتاب «ثروة الأمم» تأليف آدم سميث سنة 1776.

7- الخطاب الذي ألقاه وليم ولبرفورس يوم 12 مايو سنة 1789، داعيًا إلى تحريم تجارة العبيد.

8- المساواة بين المرأة والرجل في الحقوق، التي دعت إليها السيدة ماري ولسنكرافت.

9- تجارب العالم فراداي على الكهرباء سنة 1855، وبغير الكهرباء لا صناعة ولا كشوف علمية.

10- كتاب «أصل الأنواع» للعالم الكبير دارون سنة 1859.

11- أول كتاب عن قواعد تشكيل اتحادات كرة القدم سنة 1863 التي اكتسحت العالم بعد ذلك.

12- كتاب السيدة ماري ستوبس عن «زواج الحب» وتحديد النسل سنة 1918.

وبعض النقاد الإنجليز أضافوا كل كتب مغامرات الطفل هاري بوتر من تأليف السيدة رولنج والتي أنعشت الأطفال وخيال الأطفال وجرجرت وراءها الآباء والأمهات ودور النشر والسينما.

البرواز أغلى من الصورة!

ذهبت مع الزميل د. سامي عمارة لنشتري لوحات فنية من أحد المعارض بالقرب من الكرملين. اللوحات بديعة رقيقة ناعمة، ورخيصة جدًا، فأشفقت على الفنانين كيف يعيشون، ورأيت أن أستخرج اللوحات من البراويز الخشبية لكي أضعها في حقائب ملابسي، واكتشفت أن البراويز أغلى من اللوحات، ولا شيء يسعد الفنان سوى أن تعيد إليه هذه البراوين، وأعدتها وأسعدهم ذلك، وعند باب المتحف وجدنا سيدة تبيع المناديل المشغولة، والمناديل رخيصة جدًا.

وفي هذا الوقت كان مئات من الروس يقفزون من المليون دولار إلى المليار، بالسرقة والنهب والسلب والمخدرات وتجارة الدعارة، بعض أصحاب المليارات في السجون، والبعض هرب إلى إسرائيل، وحصلوا على الجنسية.

وفي مطعم (أرارات) في موسكو جلست إلى جواري فتاة حلوة، وطربنا للموسيقى الأرمنية الحزينة ووجدناها مادة للسلام والكلام وكلمة منها وكلمة مني، فعرفت أنني كاتب وعرفت أنها بنت واحد مليونير وأنها في خلاف مع أسرتها، ومن مظاهر الخلاف التمرد، ومن مظاهر التمرد أن تجلس وحدها في هذا المطعم.

وفي الأيام الأخيرة نشرت الصحف الأمريكية عن سفاهة الروس أغنياء الانحلال والانفلات والسوق السوداء وتجارة السيقان عبر البحار والمحيطات، وكيف أنهم نقلوا أمريكا إلى بيوتهم وفلوس أمريكا إلى جيوبهم.

وتحققت نبوءة الزعيم الشيوعي لينين عندما قال: يجيء زمن على أمتي يأكلون فيه الكافيار بالملعقة الذهبية! وصدقت النبوءة لخمسين من أصحاب المليارات وليس للشعب الروسي أو الشعوب السوفياتية والشعوب الشيوعية، فلن يتحقق ذلك إلا إذا انهارت أمريكا وانتصرت الطبقة العاملة.

وعندما كنت في مدينة كييف عاصمة أوكرانيا فوجئت بعروسين يلتقطان صورة تذكارية، ووراءهما تمثال لينين، فاقتربت منهما وهنأتهما وسألت: أليس هذا الرجل هو مصدر التعاسة والعذاب لمئات الملايين؟ قالت العروس: بلى.. فقلت: ولماذا هذه الصورة معه؟ فضحكت وقالت: هي أنسب صورة لمن يقرر الزواج!

موتسارت في دمي!

عندي سبب قوي يجعلني أدمع عندما نحتفل في العام القادم بمرور قرنين ونصف من الزمان على ميلاد عبقري الموسيقى موتسارت. كان قزمًا في جسمه عملاقًا في فنه، أما سبب البكاء فهو أنني ألفت كتابًا عن أمراض كل عباقرة الموسيقى ومشاهيرها في الغرب وفي العالم العربي: عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد وعبد الحليم والموجي وبليغ وكمال الطويل وسيد درويش وأقطاب الموسيقى العربية القديمة، واستغرق الكتاب (الموسوعي) سنة، أعيد وأزيد فيه حتى استوى عملاً أدبيًا فنيًا تاريخيًا. أراه هامًا.

أما الدموع التي ذرفتها ساخنة فلأن الناشر قد أضاع هذا الكتاب، ضاع؟ نعم ضاع. والعمل؟ أضرب دماغي في أي حائط أراه مناسبًا. وضربت دماغي، وأوجعني دماغي. وبكيت على جهد عظيم. وكنت قد أجلت كتابة المقدمة، هذه المقدمة هي التي نشرتها بعنوان «الناي السحري» عن الموسيقار موتسارت!

ولي ذكريات أخرى مع الموسيقار العظيم، فعندما ذهبت أشهد أول احتفال له بعد الحرب العالمية الثانية، ذهبت إلى مدينة سالزبورج التي ولد فيها وبها بيته، وأقمت في نصف بيت، فالنصف الأول قد

دمرته الحرب، والنصف الباقي به بنسيون متواضع، وكانت صاحبة البنسيون هي التي تصب الماء على أيدينا ورءوسنا – لطفًا منها وإشفاقًا علينا. وكانت تبالغ في هذا اللطف والكرم.

وفي ليلة لم أستطع أن أنام فيها بسبب البراغيث. ولكني قررت أن أبقي رغم البراغيث، فالسيدة لطيفة وطيبة وكبيرة في السن وقد أخذت الحرب من نصف بيتها نصف أسرتها أيضًا: زوجها وابنتها.

وعلى جدار الغرفة وجدت سجادة إيرانية وعليها بيت من شعر عمر الخيام بالفارسية، وقد ترجمه شاعرنا أحمد رامي وغنته أم كلثوم.

فما أطال النوم عمرًا

ولا قصر في الأعمار طول السهر

ثم إن هذه البراغيث هي أحفاد البراغيث التي مصت دماء موتسارت.. إذن تجري الآن في عروقي دماء الموسيقار العبقري.. وكفى بذلك شرفا!

أساتذة الفهلوة التاريخية!

هناك ثلاث مدارس في كتابة التاريخ: مدرسة «ما قال لي وقلت له».. أي كلام ينسبه إلى زعيم مات، ولا يوجد أي دليل على صدق ما يقول إلا إذا كانت الثقة فيه تامة، فالمؤرخ يعتمد على رصيده من تصديق القارئ له.

ومدرسة «يا عوازل فلفلوا».. وهو أن يكتب التاريخ واحد ليغيظ واحدًا آخر.

ولا أعرف أين توجد هذه المدرسة بوضوح في الغرب، ولكن عندنا في مصر موجودة ومنتشرة، كأن تطلع السماء بالرئيس عبد الناصر وتهبط الأرض بالرئيس السادات.. أي من أجل إسعاد الناصريين ومضايقة الساداتيين أو العكس.. أي الكتابة عن السادات وتمجيده لإغاظة الناصريين أو الشيوعيين أو غيرهم.

وأساتذة هاتين المدرستين يجعلون الثقة في خطر وهم يعتمدون اعتمادًا كاملاً على مدى تصديق القارئ للكاتب. ومن المؤكد أن هناك عيوبًا في كل خلق الله. والمبالغة في العيوب أو فبركتها هي التي تمتع القارئ.

أما المدرسة الثالثة فهي التي تعتمد على الوثائق الصحيحة، فهي مدرسة موضوعية علمية، لا تكتب إلا من وراء الوثائق الصحيحة.

فلاسفة الحضارة يفرقون بين نوعين من هذه الكتابة.. التأريخ – بالهمزة – أي الكتابة مع الاعتماد على الوثائق أو السجلات الرسمية.. والتاريخ –من غير همزة– أي صياغة التاريخ بأسلوب أدبي خاص.. ومن بين هذه الصناعات تحويل الأحداث إلى قصص وروايات ومسلسلات، فهي صادقة فيما تعرض، ولكن بأسلوب فني، حتى في المدرسة يرى بعض علماء التاريخ والمؤرخين أنه لا يحق للكاتب أن يتصرف فيما حدث، صحيح أنه كأديب لا يملك إلا أن يتصرف، ولكنه في هذه الحال لا يكون مؤرخًا وإنما هو فنان، وهو حر، ومهما كان حرًا فلا يحق له أن يجترئ على التاريخ أو يتجنى ويحكم ويتحكم.. إلا إذا كان من رأيه أنه يقتبس، ومعنى ذلك أنه احتفظ للتاريخ بعطره وشذاه.

وتحتار أنت أية هذه المدارس ينتمي إليها الكاتب العربي الفهلوي– والفهلوة مدرسة رابعة ليست لها أبواب ولا نوافذ ولا فصول ولا مقاعد، وإنما هي تشمل في أحضانها كل الوطن العربي، مدارس بلا طلبة، وإنما لها أساتذة فقط!

الشجرة والبنت والحذاء!

فكرت في زيارة كوبا مرة ثالثة، واتجهت عيناي إلى فندق (هافانا ليبري) أي هافانا الحرة وكان اسمه قبل ذلك هيلتون. وإلى محل بيع القهوة التي لا أستطيع أن أشربها، ولم أحاول، فهم في كوبا يطحنون البن والسكر معًا، فهي بلاد البن وقصب السكر والدخان، وليس فيهم واحد لا يتناولها كلها معًا، فكنت إذا أردت أن أشرب القهوة التركية السادة أذهب إلى السفارة المصرية.

وأمسكت القلم بحكم العادة ورسمت شجرة وتحتها بنت وقد خلعت حذاءها، ولم أفهم ما معنى هذه الصورة التلقائية، أما البنت فأعرف لماذا؟ أما الشجرة فهي شجرة بن أو قصب سكر أو تبغ.

ولا بد أن الشجرة أيضًا ترمز إلى تلك الليلة المطيرة جدًّا، والتي تماسكنا فيها بالأيدي واحدًا وراء واحد، وراء الرئيس كاسترو لكي نزرع شجرة التضامن. فقد كان المؤتمر الذي شاركنا فيه هو مؤتمر (القارات الثلاث) أمريكا وأوروبا وإفريقيا. وغابة التضامن قد غرست فيها كل الشعوب رمز التضامن المتنامي بينها.

وكنا نردد ما لا نفهم من الأغاني السهلة التي يسهل فهمها على من يعرف الإيطالية.. والأغاني الإسبانية.

وأخيرًا عرفت معنى هذا الحذاء، ففي مدينة هافانا بيت وحديقة بها حيوانات تركها الأديب الأمريكي الكبير همنجواي الذي عاش فيها طويلاً وأحبها كثيرًا، ففي غرفة مكتبه وجدت الأرض قد امتلأت بالأحذية تمامًا كغرفة نوم أستاذنا العقاد، أما مكتبه فقد تزاحمت عليه الأقلام تمامًا مثل مكتب صديقي الأديب السويسري ديرنمات، وقد بهرني في أديب سويسرا أن له بيتين: واحدًا يعيش فيه والثاني يكتب فيه. وسألت الأستاذ العقاد عن الحكمة من كثرة الأحذية هذه، فكان من رأيه أننا لا نهتم عادة بما يريح القدمين اللتين تحملان الجسم الإنساني، وقد تؤدي الأحذية الصغيرة أو غير المريحة إلى مضاعفات في الساقين والركبتين والكتفين، ولذلك فراحة القدمين هي راحة للجسم والعقل أيضًا.

وضحك العقاد وقال: يا مولانا الإنسان يمشي على رأسه ورأسه في حذائه.. ها ها!

ظلال على شارع التنهدات

كنا ونحن صغار نسمي أحد شوارع حي الزمالك: شارع التنهدات. فقد رأينا وعايشنا (كوبري التنهدات) في مدينة البندقية.. وتحت الكوبري يتسكع العشاق في الجندول ويقولون: آه.. وفي مدينة تبنجن الألمانية توجد حديقة اسمها (حديقة التنهدات) وفيها يجلس الطلبة بعيدًا عن قاعات البحث ويقولون: آه..

ونحن أطلقنا الاسم على شارع الجبلاية، أي الجبل الصغير، الموجود في حديقة الأسماك، وأظن أنا الذي قال وكتب عن هذا الشارع وأطلق عليه هذه التسمية.. والشارع يبدأ من فيلا أم كلثوم مارًا ببيت إحسان عبد القدوس وفاتن حمامة وسباق الخيل والنادي الأهلي.

والشارع كثيف الأشجار، والأشجار لها ظلال حالمة إذا كان القمر في السماء.. فإذا لم يكن، فإن العيون والدموع هي التي تلمع في ضوء السيارات العابرة أو الواقفة أو التي تحاول، ثم عدت فكتبت عن شارع آخر اسمه شارع التنهدات وأصدرت كتابًا بعنوان (شارع التنهدات).. وهو الشارع الذي يمتد من مبنى الإذاعة القديم وماركوني مارًّا بصحيفة «الأساس» مع بدايتي الصحافية.. ثم مارًّا بمحل «البن

البرازيلي»، الذي وقفنا أمامه ربما عشرين عامًا نلتقي كل صباح مع الإذاعيين والصحافيين والممثلين.. وانتهاء بشارع الصحافة، حيث صحف «أخبار اليوم» و«الجورنال ديجبيت» و«الزمان» وبعد ذلك «الأهرام».. وأمضيت العمر كله في هذا الشارع ذهابًا وإيابًا وطعامًا وشرابًا.. وعندما احترقت القاهرة وقفنا نرى الخشب يتحول إلى فحم في النادي الإنجليزي ووراء مكتبة «سميث» التي كانت تتطاير فيها الكتب كتلاً من النار والدخان ووجع القلب ودموع العين..

وماتت البنت الحلوة التي كانت حلمنا جميعًا.. ما أجمل صوتها وصورتها ولغاتها وحياتها ومغامراتها، وكانت طاقة تبث الأمل وتشع الحيوية وتوقد نيران الحب والغيرة.. كل ذلك صار ترابًا.. رحم الله أرليت كوجان عاشقة مصر وتاريخها وملهمة شعرائها وفلاسفتها..

وجلست أكتب مرة أخرى: ظلال على شارع التنهدات!

ويسمونه الزمن الجميل؟!

لو كانت الكتاتيب في البلاد العربية مثل الكتاتيب القديمة في مصر لحكيت قصصًا وحكايات ومغامرات، سألت بعض السفراء العرب، قالوا: لا فرق.

إذن سوف أحكي ما حدث في الأسبوع الماضي، ذهبنا نفتتح مدرسة جديدة في مدينة المنصورة، تقدمنا وزير التربية والتعليم د. أحمد جمال الدين ود. فاروق العقدة محافظ البنك المركزي، وكلنا بلديات، مبنى المدرسة تحفة معمارية والحديقة وقاعات الكومبيوتر والمكتبة والملاعب، ما أسعد أبناء هذا الجيل، أما نحن الذين يصفوننا بأننا أبناء (الزمن الجميل).. والله لم يكن زماننا جميلاً، أين الجمال في الكتاتيب التي خرجنا منها أحياء؟!- وهذه هي المعجزة الأولى في حياتنا، أما المعجزة الثانية فهي أننا مضينا إلى الجامعة في القاهرة ونجحنا وتفوقنا، رغم الماضي الحزين، وهذه هي المعجزة الثانية.

أما الكتَّاب - بتشديد التاء - إن كنت لا تعرف، فهو غرفة مظلمة أكثرها تحت الأرض، الغرفة ضيقة مظلمة ونافذتها الوحيدة قريبة من السقف، أي من سطح الشارع، وأما أرض الغرفة فهي من القش الحي، وهو حي لكثرة البراغيث التي تلسع، وكأن لسع البراغيث لا

يكفي، فصاحب الكتاب - سيدنا- في يده عصا طويلة، ولأنه أعمى فهي تصيب وتخيب وتلسع كل من غلط ومن لم يغلط.

- يا واد يا أنيس.

- نعم يا سيدنا.

- استعذ بالله واقرأ.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾.

- أي (فقد أصابتني العصا في عيني).

- العين مش واضحة يا ولد.

ولا يجرؤ أحد أن يشكو، فقد جئنا لحفظ القرآن الكريم في سنتين ونصف السنة، وليس أعظم ولا أروع، وكانت زوجة سيدنا تقسم العمل بيننا: واحد للملوخية وواحد لتقميع البامية وواحد لكنس الغرفة والبيت وأمام البيت.. وواحد يدخل برأسه وذراعيه ليجمع البيض من تحت الدجاج- وتلك مهمتي!

إن الكتاب مقبرة داخلها مفقود وخارجها مولود، ويسمون زماننا بالزمن الجميل - عجبي!

لو أحد قال لي ذلك!

وجدته يبكي في عيد ميلاده، كثيرون يفعلون ذلك، والسبب – هو يقول– إن سنة من عمره قد ضاعت.. ضاعت؟ ومن الذي ضيعها؟ ومن الذي لم يستمتع بها؟ هو طبعًا. وبدلاً من أن يفرح ويفرفش لأنه عاش سنة وما يزال حيًّا سوف يعيش، وأن حياته معناها أنه ما يزال بعيدًا عن الموت أو انتصر عليه، فإنه يرى الجانب القاتم من الصورة.

وما ينسب إلى الزعيم الألماني أدناور الذي عاش حتى التسعين، أنه في يوم قرأ في إحدى الصحف إنه تقدمت به السن جدًّا.. فقال: وأي حق له في أن يقول إنني رجل بلا مستقبل، بل عندي مستقبل.. فسوف أعيش الساعة القادمة واليوم والأسبوع والسنة.

وقد عاش بعدها عشر سنوات.

وزعماء آخرون مثله أيضًا: زعيم البرتغال ديفاليرا وزعيم كينيا جومو كنياتا والملك سوموزا ملك سوازيلاند، وكانت له 200 زوجة.. وقرر في ليلة أن يتزوج فتاة صغيرة عمرها 16 عامًا، فتزوجها وكانت ليلة دخوله القبر!

والشاعر العربي يقول:

إن الثمانين – وبلغتها– قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

أي أنه قد بلغ الثمانيز وعقبال عندك قد جعلته ثقيل السمع والخطى، ولكنه بلغها وتجاوزها، ويتطلع إلى التسعين.. ولم لا؟

الفنان الكبير شارلي شابلن تحدثت عنه بعض الصحف، فقالت إنه كان يتعاطي المقويات والمنشطات وذكرت أسماء هذه العقاقير، وكان إعلانًا عنها، واعترض شارلي شابلن وكذبها وقال إن شبابه يستمده من ذاته.. من حبه للحياة وإيمانه بأن له رسالة فنية لم تكتمل بعد..

واعتذرت الشركات التي استغلت هذا الإعلان. والحقيقة أنه كان يتعاطى المنشطات.. وإيه يعني؟ ولكنه في حديث للتليفزيون الفرنسي قال: لو أحد قال لي إنه من الممكن أن أعيش مائتي عام لو أنني فعلت كذا وكذا ما ترددت، فالحياة حلوة في الشباب وفي الشيخوخة، وقبل الموت بأيام وساعات ولحظات!

قل لي يا عارفًا بالأحوال!

ولم لا؟ وضعت أمامي عددًا من الصحف والمجلات وعيني على (البخت)، وقرأت، بعض الصحف تتحدث عن مواقع الكواكب في الأبراج، وعرفت موقع برجي. أنا أعرفه. وهؤلاء العرافون لا يضيفون جديدًا.

وبعض العرافين عندما يتحدثون عن الأبراج والحظ هذا اليوم أو هذا الأسبوع يتكلمون كأنهم يخطبون في برلمان النجوم والكواكب، ولذلك يشعر القارئ أنهم لا يتحدثون إليه وإنما اتخذوا لهم منابر فوق القمر وراحوا يخاطبون سكان الكواكب الأخرى، بينما هم يتحدثون فقط إلى سكان كوكب الأرض، ولا أعرف كيف يفهم الناس ما يقولون.

وعرافون آخرون يتجهون مباشرة إلى قلبك وإلى جيبك، إلى الحب والفلوس، وكيف تلتقي أو تبعد الفلوس عن القلب، وكيف أن العقل هو حكم في مباراة يومية، ليس لها كأس ولا دوري، ومن العجيب أن العرافين يطلبون إليك أن تسمع كلام العقل، فيدخل من هذه الأذن ليخرج من الأخرى، إذن تسمع كلام من؟ كلام القلب، والعرافون يرون أن القلب لا صوت له.

أما المجلات الفرنسية فهي تتحدث أسبوعيًا بتفصيل أكثر دقة، فالبرج الواحد يضمن عدة أبواب: العقل، القلب، الفلوس، الزوجة، الحب، والرحلات، والصحة. وكل هذه المعلومات تجيء بمنتهى الدقة بسبب حركة الكواكب في الأبراج. والتقائها هناك فوق، فهي في حركتها ودورانها تطلق موجات ضوئية وصوتية يحولها العراف إلى خانات الحب والفلوس فور وصولها إليه.

أمسكت ورقة وقلمًا وكتبت ما ينصح به العرافون الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون والألمان، وجدتهم يؤكدون أن غدًا أفضل. وأنني لو كنت قد استمعت إلى نصحائهم لكان الغد وبعد الغد أفضل من اليوم والأمس، ولم أستفد شيئًا، إنما أمضيت ساعة من الوقت أبعدتني عن كل ما هو هام في حياتي.

عمرو وأبو سرجه وبن عزرا!

أعرف مقدمًا ماذا سوف يحدث للمعابد اليهودية في غزة. وجودها استفزازي. تحويل الشعب الفلسطيني الكاره لكل ما هو يهودي وصهيوني حارسًا عليها.. يحرسها من نفسه.. كيف؟ فإذا استطاع الحراس أن يمسكوا أعصابهم فكيف يستطيع الباقون؟ إن الاعتداء عليها يدفع إلى الاعتداء على المسجد الأقصى.

فإن كانت إسرائيل تريد السلام فلتقلعها هي من أرض غير أرضها.. من أرض لن تلقى احترامًا فيها من كل أحد.. وعلى ذلك اختلافات في إسرائيل بين دعاة السلام الذين يرون في بقائها إثارة للانتقام ودعوة للدم..

ونحن في مصر نعرف ماذا حدث عندما أصر الرئيس السادات على إزالة مستعمرة «ياميت» من شمال سيناء. ذهبت إليها رأيتها أيام الاحتلال. وذهبت إليها بعد ذلك. لقد هدموها. وهدموا المعبد الذي بداخلها. إنهم أحرار: وتركوا على الجدران عبارات غيظ شتيمة في مصر والمصريين.. ورد عليهم المصريون بشتيمة أخرى، وهي مهدمة تمامًا. هم قالوا على الجدران: وإذا عدتم فالموت وجهنم في انتظاركم.

وبقي المعبد مهدمًا.. ما بقية المستعمرة فقد أزيلت تمامًا.. والمصريون يريدون أن يبقى هذا الأثر محطمًا مهدمًا. فهم يجدون في ذلك شيئًا من الارتياح من النظر إليه.. وبعد ذلك سوف يعود الوئام بين الجميع.. كما سوف يعود في فلسطين بعد قيام الدولة. فلا أحد يريد الموت والدمار وحرق الأعصاب.

وفي القاهرة في حي «مصر القديمة» يوجد السلام التام بين المعابد الثلاثة: جامع عمرو بن العاص، وكنيسة أبو سرجه، وكنيس بن عزرا.. وكان الرئيس السادات قد فكر في إقامة رمز للأديان الثلاثة.. رمز الوئام والسلام . واختار له موقعًا هو وادي الراحة عند الجبل الذي صعده موسى وكلم ربه ونزلت عليه «الوصايا العشر»، وعندما نزل من الجبل وجد أهله يعبدون عجلاً من ذهب!

وكان السادات يريد بناء رمز المعابد الثلاثة بأن يتبرع كل المسلمين والمسيحيين واليهود بأي مبلغ من المال ليكون ذلك بناء لهم ومنهم.

ولكن السلام ليس معبدًا، إنما هو هنا، في العقل والقلب معًا!

إحدى ليالينا السعيدة!

تلقيت هذه الرسالة باللغة الفرنسية: عندك الخريطة، في الجانب الأيسر بـارتـفـاع درجـتين وميل سبع درجـات وابـتداء من السـاعة الواحدة صباحًا حتى الثانية وعشرين دقيقة. وهي ظاهرة لن تتكرر في هذا القرن، ليلة سعيدة!

ثم هذه الملحوظة: إذا لم تكن الخريطة واضحة اطلبني في أي وقت في الرقم التالي، فأنا أيضًا سهران ومعي أربعة من الأصدقاء وأنت أحسن حظًا، فالجو عندكم أحسن، وقد اتصلت بالدكتور عبد الواحد، هل تذكره؟ إنه الآن في نيوزيلاند، ورقم هاتفه إن أردت، شكرًا.

وهي ليلة من الليالي السعيدة جدًا، فنحن منذ شهور قد اتجهت عيوننا إلى السماء وإلى الخرائط التي صورت السماء. وإلى مواقع ناسا الأمريكية، واشتركنا في حوار مع أحد العلماء وقال لنا، ونبهنا ولفت عيوننا إلى ظاهرة لا تبدو للعين المجردة وإنما نحتاج إلى تلسكوب متوسط ولدينا أكثر من واحد، ففي هذا الجانب من الكون سوف تظهر إحدى النجوم ويكون لونها أزرق أصفر، وأحيانًا داكنًا حسب موقع المشاهد، وهي تبعد عنا ألوف ملايين الكيلومترات، وسوف تكون هذه النجمة البعيدة قوية اللمعان أكثر من ألف شمس، وقد اتخذت هذا

الموقف قبل ذلك من ثلاثة قرون، وقد رصدها عالم ياباني من الهواة، وكان رصده دقيقًا لدرجة أنه حدد الساعة والدقيقة والثانية ودرجة اللمعان، وقال كلامًا كثيرًا عن حجم السحب الغازية، بل قال إن هذه النجمة قد أفلتت من أحد الثقوب السوداء - مع أن ذلك مستحيل. ولكنه فسر ذلك بأنها كانت أسيرة هذا الثقب مئات السنين - هو الذي يقول ولا أستطيع أن أناقش، فلا أملك ما لديه من علم وأجهزة، وإنما أتعجب!

وعند ظهور هذه النجمة التي لها اسم فلكي صعب، تلقيت إيميل من د. عبد الواحد الغمراوي يقول: الآن، انظر سوف أصورها لك، انظر.. الله.. يا سيدي.. اللهً.

ونظرت واعتصرت عيني وجعلت كل عقلي في عيني وانسحبت من الدنيا حولي، ورأيته بارقًا لامعًا بعيدًا في فضاء موحش تمامًا، وليست إلا واحدة من ألوف ملايين ملايين ملايين (إلى آخر الصفحة) من النجوم في سماء اللهً.

وكانت ليلة سعيدة، مع أن السعادة لم تتجاوز دقيقتين، ولكن مدمني ومجانين الفلك يرون في ذلك سعادة مطلقة - يا بختنا!

وكان قدرهم شيئًا آخر!

في داخل كل واحد منا غريزة للاتجاه الذي يناسبه، فكم عدد الذين أراد لهم آباؤهم شيئًا فكان لهم مصير آخر! ولو كان الأمر بيد والدي، لكنت أحد علماء الأزهر، ولكن الأمر والقرار كان في يدي أمي، رحمها الله.

وفي التاريخ حكايات وأمثلة عجيبة لذلك، فالطبيب الإيطالي فالوبباس الذي اكتشف قناة في رحم المرأة سميت باسمه، كان الأمل أن يكون قسيسًا، ولكنه أراد شيئًا آخر، فكان من أعظم الجراحين في القرن السادس عشر.

والشاعر الإنجليزي مارلو، الذي ألف مسرحية «فاوست» وهو في السابعة عشرة من عمره أدخلوه كلية اللاهوت بجامعة كمبريدج، ولكنه صار شاعرًا ملحدًا، واعتقلوه، ثم قتلوه دون الثلاثين!

والعالم الفلكي العظيم كبلر كان شديد الإيمان، وكان إذا أخطأ صلى وبكى، وشاء الله له ألا يرفع عينيه عن نجوم السماء فاكتشف قوانين حركة الكواكب.

والعالم العظيم دارون شاء له أبوه أن يكون قسيسًا، ولكنه ترك دراسة اللاهوت ليتفرغ للبحث على إحدى السفن البريطانية، السفينة اسمها (بيجل) وقد أطلق الأمريكان هذا الاسم على إحدى سفن الفضاء، وظهرت عبقرية دارون في دراسة الحيوانات والحشرات والنباتات واهتدى إلى «فك» سر مسار الحياة وتطورها في مراحلها المختلفة!

والزعيم السياسي ستالين هرب من الكنيسة وعمل إرهابيًا، واتجه إلى السياسة، فكان واحدًا من زعماء الشيوعية، واستطاع وحده أن يقتل عشرة ملايين بشتى أشكال السجون والعذاب، وقد قابلت إحدى ضحاياه وكانت مرافقة لي في رحلة بين روسيا وأزبكستان وروسيا البيضاء، فقد ثار أبناء قريتها، فقرر ستالين هدم القرية وتشريدهم، الأب في مكان والأم في مكان ثان، وهذه الفتاة التي كانت طفلة في مكان ثالث.

وكان أستاذنا العظيم طه حسين خريجًا في الأزهر، وكذلك الشيخ محمد عبده، وكان طه حسين أكثر تحررًا وأشد كراهية للتعصب الديني، وكان طه حسين هدية ثمينة من جامعة الأزهر إلى جامعة السوربون، فأضاء الجامعتين سبيلاً إلى النور والحرية!

قدم البطة وساق الماعز!

قرأت إحدى الأساطير الإسكندنافية، تقول: إن ملكًا تزوج أميرة جميلة جدًّا، وبسبب الحقد عليها أشاعوا أن لها قدم بطة، ولم يستطع الملك أن يرى قدميها، فهي مغطاة بملابس طويلة، وحتى لا يجرح شعورها وفي نفس الوقت يعرف الحقيقة حفر لها قناةً وسط الحديقة، وجعل القناة واسعة، حتى إذا جاءت الأميرة كان لا بد أن تشمر عن ساقيها، وفعلت ورفعت ثوبها ليرى الملك قدمين جميلتين، لا قدم بطة ولا إوزة، وتبددت الشائعة.

هذه الشائعة ظهرت قبل أو بعد ذلك عن بلقيس ملكة سبأ، قيل إن لها ساقي ماعز، فلما ذهبت إلى الملك سليمان أراد هو الآخر أن يعرف، فاستضافها في قصر أرضه من الزجاج، فلما دخلت القصر خيل إليها أنها لجة من الماء فكشفت عن ساقيها، وتأكد الملك أن لها ساقين جميلتين، فلا هي ساقا ماعز ولا قدم بطة.

وملكة سبأ لا نعرف لها اسمًا، وفي القرآن الكريم لم يرد اسمها، وأما بلقيس هذه فهي كلمة يونانية ومعناها: الغازية أو الفاتنة، وأصبحت الصفة اسمًا على الملكة.

ومن الغريب أن الأسطورة الإسكندنافية تقول إن الأميرة قبل أن تنزل إلى الحديقة للقاء الملك الذي هجرها أسبوعًا عندما قيل له إن لها قدم بطة، دخلت الحمام وملأت الحمام باللبن الدافئ والعطور، وكذلك فعلت بلقيس، فقد ملأت حمامها ببول الإبل ولبن الأتان (أنثى الحمار) ووضعت الكثير من العطور حتى تلقى الملك في قمة جمالها وكمالها، وأغرب من ذلك أن كليوباترا قبل أن تنتحر تجملت كأنها تريد أن تزف نفسها إلى الموت، فملأت حمامها ببول الأتان والعطور المصرية والإفريقية القوية.

ومنذ عرفت بلقيس وكليوباترا والأميرة الإسكندنافية أن لهن سيقانًا جميلة، تقول الأسطورة أيضًا إنهن وراء الأبواب كن يتحركن عاريات تمامًا لامعات معطرات السيقان!

نون: كلمة فرعونية معناها الماء!

هواية الذين يعرفون لغات عديدة أن يقارنوا بين الكلمات أو يبحثوا عن أصولها، وما زلت أجد متعة كبرى في ذلك، أحيانًا تؤيدني الكتب وأحيانًا أخرى اجتهادي الشخصي.

ففي القرآن الكريم: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

ويقول المفسرون إن كلمة (نون) من معانيها: الدواة، فكأن الله أقسم بالقلم – وهو أول ما خلق الله بعد آدم وحواء – وأقسم بالدواة أيضًا. ومفسرون آخرون يرون أن (نون) هو الحوت، فذو النون هو صاحب الحوت يونس عليه السلام الذي التقمه الحوت.

وفي اللغة الهيروغليفية أن (النون) هو إله الماء والمحيطات والبحار التي سبقت خلق الكون، وأن هناك إلهة أخرى اسمها نونت. وكذلك كلمة نون معناها الأسماك أو الحيتان في اللغة العبرية القديمة، فمن هذه المياه خرجت كل الكائنات.

وفي القرآن الكريم: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، أي أن الماء سابق على خلق العرش.

ونحن صغار كنا نحفظ هذا التلاعب بالكلمات.

عينان عينان لم يمسسهما ـمد

في كل عين من العينين نونان

نونان لم يكتبهما قلم

في كل عين من العينين نونان

تفسير ذلك: النون وهو الحوت له عينان، والعينان اللتان بهما حوتان هما نهران أو بحران، أي في كل بحر من هذه البحور حوتان، وكل حوت له عينان.

وعند الفراعنة أيضًا أن الإله نون له ألوان كثيرة: أسود ليلاً فضي ظهرًا، دموي غروبًا. وكانت الآلهة نونت تساعده على إثارة الأمواج وإغراق السفن، وإن كانت تترفق بالغرقى فتنقذهم، ولكن تترك السفن تلعب بها الأمواج.

ولم أعرف من أين أو كيف، دخلت كلمة نون إلى اللغات الأخرى كالعربية والعبرية، ومن المؤكد أن الهيروغليفية هي الأقدم. فذلك يحتاج إلى بحث آخر، أطول وأصعب!

خايف أقول: نشيدنا القومي!

كانت حفاوتنا غير طبيعية، عندما أهدانا الموسيقار محمد عبد الوهاب أغنية «خايف أقول اللي في قلبي» بصوت فيروز، اللَّه على جمال صوتك ورقته، ومحمد عبد الوهاب بين الكورس وكان صوته واضحًا.

وتنقلت هذه الأسطوانة بيننا، عشرين، ثلاثين وسمعناها في التليفون وأسمعناها أيضًا، وكتبنا وأطلنا في الكلام، ولكن أحدًا لم يلتفت إلى هذا «الشيء» الجديد، فطبيعي جدًّا أن نحب صوت عبد الوهاب وصوت فيروز أيضًا، فقد غنت لعبد الوهاب ثلاث أغنيات: يا جارة الوادي، واسهار، وخايف أقول اللي في قلبي.

ولم نلتفت إلى أن فيروز مثل كل اللبنانيين تقول: اللي بقلبي، أو رأيت طيفك بمنامي، وعبد الوهاب يقول: اللي في قلبي، ورأيت طيفك في منامي.

ولكننا كنا نغني ونطيل في هذه الأغنية، لأنها كانت النشيد القومي السري لنا، فنحن نخاف أن نقول على أيام عبد الناصر، لا اللي في القلب ولا اللي من ورا القلب.

حتى ظهرت أغنية جديدة لعبد الحليم حافظ صارت أقوى وأوقع وأوجع أيضًا. يقول عبد الحليم حافظ: أمرك يا سيدي، يا سيدي أمرك، تقدر تحط الحديد في إيدي، أمرك يا سيدي.

وكان الرئيس عبد الناصر قد أصدر قرارًا بفصلي من الصحافة والتدريس في الجامعة، لكي أتفرغ لخايف أقول، وأمرك يا سيدي، وكانت هاتان الأغنيتان على جمالهما مادتنا للفكاهة والتخفيف عن النفس وهوان الليالي الطويلة بلا عمل ولا أمل!

واكتشفت أنا في ذلك الوقت شيئًا هامًا، فقد اتجهنا جميعًا إلى الاهتمام بمسرح اللامعقول، أو مسرح العبث، فترجمت سبع مسرحيات للأدباء يونسكو وأداموف وأربال، ثم أصدر توفيق الحكيم مسرحية «يا طالع الشجرة»، وهي تحفة في مسرح العبث أو مسرح اللامعقول، ووجدت سببًا قويًا لهذا الاتجاه، هو أن هذا الأدب يدل على ضياعنا وعبثية الحياة السياسية في مصر، فكان العبث هو الحال ولسان الحال، وكان الإغراق في العبث هو إغراقًا في الضياع الروحي والضلال الفكري، واليأس من أن يطلع علينا قمر أو شمس.

وكنا نردد الأغنية الشعبية، التي اتخذ توفيق الحكيم اسم مسرحيته منها: يا طالع الشجرة هات لي معاك بقرة، تحلب وتسقيني بالملعقة الصيني – أما الكورس فيقول: يا دهوتي.. وماكانش يومك يا سبعي!

ليلة لا غاب ولا ظهر فيها القمر!

ربما كان جيلي أسعد حظًا، فقد رأينا الكبار وسمعناهم وسعدنا بهم، تصور ليلة في إحدى الحدائق لأحد الباشوات وكان الجالسون يوسف وهبي وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب والشعراء أحمد رامي وصالح جودت وسعيد عبده وكامل الشناوي والراقصتين تحية كاريوكا وزينات علوي والمخرج حسن الإمام، ما الذي قيل، لم يقل! كيف بدأت كيف انتهت، كيف تغيرت مواقعنا وقولنا وجلوسًا من الضحك، هل أخطأنا في تلك الليلة عندما أجمعنا على أن نطلب من يوسف وهبي أن يبدأ الكلام؟ لم نخطئ فقد ظل يوسف وهبي يقول ويحكي ساعة وراء ساعة حتى نسينا أن البدر قد ملأ السماء، ولما انتهى من كلامه خرجت الشمس تفضح سترنا ولا نعرف أين توارى القمر.

ولا أحسسنا أن عبد الوهاب كان من الممكن أن يعزف أو يغني ولا أم كلثوم كان من الممكن أن تسعدنا بأغانيها: رق الحبيب، وياللي كان يشجيك أنيني، وغلبت اصالح، وهلت ليالي القمر، وفات الميعاد، وانت عمري، ففي أول الليل قلت لها: يا ست أنا متمسك بحقي، أسمع منك عشر دقائق فقط، ياللي كان يشجيك أنيني.

ومن حين إلى حين عندما يذهب يوسف وهبي إلى داخل الفيلا، يقول أحمد رامي شعرًا، وكذلك صالح جودت وكامل الشناوي، فإذا ظهر يوسف وهبي ليكمل ما بدأه– وقد ابتدأ حكايات وروايات ونوادر كثيرة في الفن والسياسة والحب والخيانة والزواج في مصر وفي إيطاليا، فإذا رأى يوسف وهبي أن يغير ملابسه نهضت تحية كاريوكا واهتزت ونحن معها، وقامت زينات علوي، وفجأة يظهر الشيخ زكريا أحمد.

فأين من عيني هاتيك الليالي– كما يقول الشاعر بلدياتي على محمود طه، ويكون النوم حرامًا من الذي ينام بعد أن قام يوسف وهبي بتقليب وتأليب القديم والجديد في تاريخ مصر، كم رجل كم سيدة كم غرام كم هيام، كم انتقام، كم في مصر من المضحكات والمبكيات– كما يقول المتنبي!

ويؤسفني أنني لم أسجل تلك الليالي، مائة ليلة، ألف ليلة – تلك الليالي لا غاب ولا ظهر فيها القمر – فما حاجتنا إليه!

الذين أدمنوا الإنترنت!

لا يوجد أحد إذا عرف الإنترنت لم يصبح مدمنًا، كلنا ذلك المسكين، فأنت بحركات قليلة من أصابعك ولحظات من الصمت تصبح أمام كنوز الدنيا في العلم والفن والسياسة والأدب وقلة الأدب أيضًا.

والإنترنت يعلمك الأدب والانضباط، فإذا أخطأت فهو لا يجد لك عذرًا وإنما هو يخضع لقواعد صارمة، فإذا أخطأت في حركة اللوحة وضغطت على حرف بدلاً من حرف أو أمر بدلاً من أمر تغيرت الدنيا، أنت تغلط وهو لا يغلط.

وقد علمني الصبر الطويل: فقلقي واستعجالي لا يهم الإنترنت ولا الكمبيوتر، فله قوانين وقواعد وأصول لا يحيد عنها، وأنا لا أستطيع أن أستسلم لمعلومات الإنترنت، فهي كثيرة جدًا وموجعة للعين أيضًا، وليست حياتي كلها أن أقرأ وأن أتوجع وإنما أن أفكر أيضًا وأن أكتب، وأن أعود إلى المتعة الحقيقية التي هي قراءة الصحف والمجلات والكتب، والذين يرون أن الورق قد انتهى، وأن لوحات الكمبيوتر هي البديل، يخطئون فكل هذه الكنوز من المعلومات كانت على ورق ثم صارت رسائل إلكترونية، بل إنني أستريح إلى تحويل صفحات الإنترنت إلى صفحات ورقية لأقرأها على مهلي، على راحتي، أعيدها وأستزيدها، فقد اعتدت على ذلك!

وبسبب كثرة المعلومات وتنوعها وتشعبها وتفاصيلها فإن القارئ يتعب ويزهق ويدوخ، ويجد أن الموسوعات والمراجع أسهل، ولكن لا يستطيع أن يفلت من جاذبية الإنترنت!

ومعلوماتي مثل قدراتي محدودة، فأنا أقرأ فقط ولا أكتب أي شيء، أقرأ على الشاشة أو أطبع الذي أنروه، وبس، ويغضب مني كثير من القراء لأنني لا أرد عليهم، والحقيقة أنني أتمنى، ولكن لا أستطيع، فأنا بطيء الكتابة وليس عندي متسع من الوقت ولا متسع في الصدر لأن أرد وأشكر أو أعتب أو أبادل أحدًا مشاعره الطيبة، فليس جمودًا ولا جحودًا وإنما هو جهل بالكتابة على صدر الكمبيوتر، وما أكثر وأجمل وأصدق ما قرأت من رسائل، ولكن العين قصيرة واليد قصيرة قاصرة، وألف شكر لكل من بعث رسالة وألف أسف لكل من انتظر ردًا!

لولا أصبعه الصغيرة!

هناك لوحة رائعة تظهر فيها العناية الإلهية ولها أصبع، والأصبع قد اخترقت المادة والفوضى والعدم فكان هذا الكون، كل شيء بدأ بلمسة أصبع، شيء عجيب.

تذكرت ذلك عندما ذهبت إلى معهد (كول - مبارك) في مدينة 6 أكتوبر، وكان من ضمن الزوار أطفال مدرسة، وأحاط بنا الأطفال، ولكن طفلاً أمسك يدي، لا أعرف لماذا، وقد حاولت أن أفلت من قبضته الصغيرة فلم أستطع، وسألت المشرفة على هذه المدرسة، قالت: هذه هي المرة الأولى لهذا الطفل أن يتخذ هذا السلوك.

وكانت لمسة أصبع الطفل هي بداية تشريعات إنسانية في الدرجة الأولى، فالطفل لقيط، وفي شهادة ميلاده يكتبون: طفل مجهول، مكان مولده: تحت إحدى السيارات، والصفة: لقيط!

أعوذ بالله!

أليس هذا إنسانًا، أليس هذا مواطنًا، إنه مجني عليه، إنها غلطة أبوين، وليست غلطته، وذهبت إلى صديقي وبلدياتي الوزير طلعت حماد، وبعد يومين صدر قرار بأن أي طفل لقيط يجب أن يكون له اسم ثلاثي،

وأن تكون له مدينة قد ولد فيها، وأن تحذف نهائيًا كلمة لقيط، لأنها مهينة للطفل، ولنا في نفس الوقت!

وتغيرت كل شهادات الميلاد، فلأن أي طفل هو مواطن صالح، لا بد أن يكون له أب وأم ومكان!

وفوجئت بمأساة أخرى، أنهم أحيانًا يجدون أطفالاً صغارًا تائهين، والطفل يعرف اسمه هو ولا يعرف اسم والده وأمه، ولا يعرف عنوان بيته، وفي الأوراق الرسمية يكتبون: إنهم اختاروا له اسمًا، ولكن الطفل تائه، مجهول الأب والأم، أو أنه لقيط.

وعدت إلى الوزير طلعت حماد وزير المتابعة في حكومة د. كمال الجنزوري، وصدر قرار فوري بأن كل طفل تائه يجب أن يكون له اسم ثلاثي، وأن يكون له تاريخ ميلاد ومكان ميلاد، فهو مواطن له كل حقوق المواطنين!

وكان السبب لمسة من أصبع طفل مسكين!

كصلاة يونس في بطن الحوت!

الطريق بين باندونج وجاكرتا مخيف ليلاً ونهارًا، فأنت تخترق الغابات الكثيفة، وفي الغابات لصوص وقطاع طرق، ولكن كان لا بد أن نعود إلى جاكرتا في أسرع وقت، ولا توجد طائرات، وإنما ركبنا سيارتين في وقت واحد: سيارتنا والرعب!

وقد سمعنا عن حكايات مفزعة في هذا الطريق، ولم نفكر في الذي من الممكن أن يحدث لنا، انطلقت السيارة، الليل كثيف، والغابات أشد كثافة والصمت له عيون وله صرخات وزمجرات، ولا نعرف من أين يصدر الصوت، وشغلنا أنفسنا عن كل ذلك بالموسيقى وبالكلام بصوت مرتفع، وكنا ممثلين بلا جمهور، نمثل دور الشجعان في مسرحية الرعب.

وكان ما توقعناه من بعيد، رأينا أربعة من الرجال وفي أيديهم مدافع، وكان لا بد أن نقف، وكنت قد تعلمت عددًا من الكلمات، منها أنني مسلم، وأنني مصري.

ونكسوا سلاحهم، وتشاوروا، ولم نفهم ماذا يقولون، ولم أعرف كيف فهمت، ولا كيف قررت أن أقف، وأن أصلي أمامهم، ليتأكدوا من أننا مثلهم مسلمون، قرأت الفاتحة ببطء شديد، ووضعت يدي على صدري، وأشرت إلى زميلي السكرتير الثالث لسفارتنا أن يفعل نفس الشيء،

واقترب واحد منهم ليسمع ماذا نقول، وصدقنا، ولكن يبدو أن واحدًا منهم تساءل كيف نصلي بالأحذية، وأشار إلينا، فانحنيت وخلعت حذائي وكذلك فعل زميلي.

لقد صلينا مثل يونس عليه السلام في بطن حوت من الظلام والخوف.

هنا فقط ظهرت علامات الرضا والسعادة على وجوههم، وكان ذلك قرارًا بإطلاق سراحنا والإفراج عنا، ومددت يدي إلى صندوق الحلوى معنا وقدمته لهم، وشكروني، ثم قدموا لنا عددًا من ثمار البابايا، وقالوا: سلامات باجي، أي مع السلامة

رويت هذه الحكاية في الحفلة الأخيرة لسفارة إندونيسيا، ليضحك الحاضرون، إلا السفير، الذي قال إنها من علامات العنف والتخلف زمان.

زمان؟ الآن؟ فهذا ما حدث!

من غير بنطلون في حفلة كبرى؟!

كانت السماء تمطر والليل أسود قاتمًا ومعالم شارع سان جرمان ليست واضحة، ولكني رأيت أمامي من يمشي بطريقة ذكرتني بأستاذنا د. لويس عوض. واندهشت، ثم اقتربت منه فكان هو.. أهلاً يا دكتور حمد اللّه على السلامة. أين تسكن في باريس؟

فأجاب بدون أسف: أنا كنت في طريقي إلى نيويورك، وهبطت في باريس خطأ. وفي الطائرة كل أمتعتي.. أريد أن أتناول العشاء. فأين اعتدت أن تأكل؟

وذهبنا إلى أحد المطاعم الرخيصة في حي باريس.. وامتدحت المطعم والطعام، ووقف على الباب يقرأ ما يقدمه المطعم من طعام.

وسألني: منذ متى تتردد على المطعم؟ فقلت: من ستة شهور. فضحك وقال: ياه.. أنت أكلت إسطبلا من الخيول والحمير.. ولم أفهم.. فقال: إنهم هنا يقدمون لحم الخيل!

فضحكت وقلت له: ولكني نباتي. فأنا أكلت سمكًا فقط!

ونحن طلبة اعتدنا على «سرحان» د. لويس عوض. كان يدخل قاعة غير قاعتنا ويلقي محاضرة على غير تلامذته.. أو ينسى الجاكيت أو منظاره الطبي.

وتذكرت الأديب الألماني لسنج، الذي راح يدق باب بيته فنظر إليه الخادم من الطابق العلوي وقال له: البروفيسور لم يأت بعد فشكره وقال: قل له سوف أمر عليه غدًا! وكذلك الموسيقار الروسي برودين الذي ذهب إلى إحدى الحفلات الكبرى وقد نسي ارتداء البنطلون.. واندهش جدًّا كيف كانوا يستقبلونه بالابتسام والضحك.. ولم يفهم!

وكان أستاذنا المستشرق الألماني باول كراوس، أستاذ اللغات الشرقية، يختار أكبر القاعات في كلية آداب القاهرة ليلقي الدروس على ثلاثة من الطلبة؛ اثنين لا يحضران وأنا وحدي الذي يذهب. ولم أكن من طلبته، وإنما كنت معجبًا به.. وفي إحدى المرات ذهبت متأخرًا.. فأشار بيده ألا أدخل. فقد تأخرت.. ومضى يحاضر بصوت مرتفع فنظرت إلى القاعة ولم يكن بها أحد. ولكنه لم ينتبه إلى ذلك. وواربت باب القاعة لكي أستمع إليه. ونسى أنه منعني من الاستماع إليه. وسألني: ما رأيك في المحاضرة فقلت: رائعة يا أستاذ.

النباتيون.. لا خوف عليهم!

ولا يهمني أن تصاب الأبقار بالجنون، ولا الطيور بالإنفلونزا، فأنا نباتي لا يأكل اللحوم، ولا حتى أسماك النيل ولا أسماك البحر الأبيض، فأسماك النيل هي الأخرى تصل عند البحيرات في شمال الدلتا وتموت، والسبب هو كثرة المبيدات الحشرية التي تصب في مجرى النيل وتتوقف في البحيرات الشمالية فقد أصبحت مقبرة للأسماك.

ولا أسماك البحر الأبيض الذي هو أقذر بحيرة مغلقة على كوكب الأرض، فمدخله عند جبل طارق، ومدخله الثاني عند قناة السويس أكثر ضيقًا، وكل السفن من آلاف السنين ترمي مخلفاتها في هذا البحر، ولا توجد فرصة للتخلص منها، حتى أصبح مسمومًا، وكذلك الأسماك التي نستخرجها منه، ورحنا نأكل أسماك البحر الأحمر.

ولم تعد تهمني الأسماك هنا أو هناك، فقد انسدت نفسي تمامًا عن الأسماك أيضًا، زهقت منها ومن لونها ومن طعمها مشوية ومقلية، وأصبحت نباتيًا تمامًا، فيما عدا تناول اللبن والزبدة، وأرتدي الملابس الحيوانية الأصل: بالصوف والحرير وأحذية من جلود الحيوانات.

وكنت أعاني مشكلة مزمنة، ففي كل مكان أذهب إليه يلاحظ الناس أنني لا آكل اللحم فتنهال الأسئلة التقليدية: أخيرًا؟ أي هل امتنعت عن الطعام أخيرًا لأسباب صحية أو أنني كذلك منذ الطفولة، والذي يضايقني هو أن أكون مركز الأحاديث والتساؤلات والنكت، وكنت أقول، وكلامي غير مقنع أو غير منطقي، إنما الناس بين مصدق ومكذب، فكان لابد من إجابات ملتوية، كأن أقول: إنني عادة لا أتناول العشاء، وإنما القليل من الزبادي والفاكهة، فإن كان الطعام ظهرًا فأقول قمت من النوم متأخرًا وتناولت إفطاري من ساعة أو نصف ساعة!

وفي يوم دعاني الأمير الشاعر عبدالله الفيصل إلى عشاء، وكانت اللحوم أشكالاً وألوانًا، وامتدت السكاكين والشوك وظل طبقي فارغًا، وسألنى فقلت: يا طويل العمر، إنه الطبيب الذي منعني، وسألني: لماذا؟ قلت: بعد تحاليل وفحوص كثيرة، قال لي لابد أن تمتنع نهائيًّا عن كل أنواع اللحوم، ولم يقتنع الأمير عبدالله الفيصل وقال: شيء غير معقول، قل من هذا الطبيب الذي قال لك ذلك؟

ولم أقل له من هو الطبيب، ومضيت أحشر الجبن والزيتون والطماطم في الخبز تنفيذًا لأوامر الطبيب!

الهاربوز من الإنسان إلى الحيوان!

نلتقي كثيرًا في عيادات الأطباء البيطريين، ومعنا كلابنا وقططنا والطيور والأفاعي والفئران البيضاء، كبارًا وصغارًا وبنات وسيدات وخدمًا، ويدور بيننا الكلام عن أحب الكائنات لنا، وبعضنا يقبل ويعانق ويدلل ويبكي، وهم منا واحدة، فهذه الحيوانات التي أحببناها نريدها أن تكون أحسن، وأن نوفر لها الصابون والبودرة والعطور والمبيدات الحشرية ومواعيد الطعام والطعام نفسه، ومن الممكن أن ننتظر بالساعات حتى يفرغ الطبيب من معالجة قط أو كلب، والكلاب تعوي والقطط تموء، ولأننا قد اعتدنا على هذه الأصوات لا نضيق بها ولا ننفر، وإنما نرى ذلك طبيعيًّا.

ومن المألوف أن تجد جارتك من دون أن تعرفك أو تجد جارك يحدثك بالتفصيل عن كلبه أو قطته وماذا جرى وما الذي أتى به إلى هنا، لا هو يمل ولا أنت، وبعدئذ يتحدث كل منا عن كلبه أو قطته ونوعها ومتاعبها نتبادل أرقام التليفونات، ونكون أصحابًا؛ لأن لنا همًّا مشتركًا، ففي البدء كان الكلب أو كان القط أو الثعبان أو الحمام الزاجل، فكلنا التقينا من دون أن ندري في جمعية الرفق بالحيوان وحب الحيوان والانشغال به والتضحية من أجله.

سألني جاري: وأنت ماذا فعلت بالكلب الذي ألقت به الخادمة من الطابق السادس ليلاً، وهل طردت الخادمة أو ضربتها، ثم ماذا فعل الجراح بساق الكلب، ثم الكلب الذي توفي لأنه أكل طعامًا مسمومًا قد أعددناه للفئران وأين دفنته وهل بكيت، وهل في الأسرة أطفال رأوا هذا المشهد الحزين، وهل رأيت الفيلم الذي كان معروضًا عن القطط؟

ولم أستطع أن أجاري الدكتور حسين فوزي الذي كانت زوجته الفرنسية تربي عشرين أو ثلاثين قطًا، فلا يغادر بيته حتى تلتف حوله وتموء، ولا يعرف ما الذي يفعله، فإذا أنت جلست تزاحمت على ساقيك وكتفيك، وعندما توفي الدكتور حسين فوزي ترك القطط عند السفرجي ومبلغًا من المال، وكذلك الدكتور لويس عوض كانت زوجته الفرنسية لا تنام إلا إذا تزاحم على حضنها أربعون قطًا، وكانت لدى الدكتور لويس عوض تعليمات مشددة إن وجد القطط نائمة في سريره أن يذهب إلى مكان آخر في البيت أو عند أصحابه، ولكن لا يوقظ القطط!

صدقني.. كلما عرفنا الحيوان ازددنا كراهية للإنسان!

انتهت عقدة الشبابيك المغلقة!

كانت لي عادة غريبة، لم يناقشني أحد فيها ولا نبهني إليها، واندهشت لذلك، فلا أكاد أدخل مكانًا وأجد النافذة مفتوحة حتى أبادر بإغلاقها، وعندما يسألونني فلدي إجابات جاهزة وغير مقنعة، وكان هذا السلوك يبعث على الدهشة وأحيانًا على السخرية. وفي يوم جلست أقلب في طفولتي، فكل شيء قد بدأ في الطفولة، وقد ألفت عشرة كتب عن بدايات المشاكل في الطفولة، ولا تزال الطفولة ينبوعًا متدفقًا، ولي كتاب اسمه «البقية في حياتي.. لوحات تذكارية على جدران الطفولة»، أي أن في هذا الكتاب بدايات المشاكل، وكلها في الطفولة واستمرت بعد ذلك في بقية حياتي.

ووجدت في طفولتي أحداثًا غريبة، من بينها أنني وأنا في الكتّاب – بتشديد التاء – قد طلب منا سيدنا – أي أستاذنا – أن نسرق كتّابًا آخر، فجمعنا ليلاً ووزع العماية بيننا، هذا يقف وهذا على كتفيه ويدخل ويلقي بالمقاعد من النافذة، ثم يغلقها ونعود جميعًا، دون أن نبلغ آباءنا بذلك، وقد حدث!

وفي المدرسة الابتدائية كانت المدرسة من طابق واحد، وكان الفصل الذي أجلس فيه على الشارع، وكان مدرس اللغة العربية يفتح

النافذة وينادي الباعة: إنت يا بتاع البطيخ وانت يا بتاع الملوخية، ويشتري ويناقش ويشاكس، وبعد أن يفرغ من عملية الشراء يطلب إلى بعض التلاميذ – وأنا منهم - أن نذهب بهذه المشتريات إلى البيت، فنقفز من النافذة، وإذا عدنا دق النافذة ويفتح لنا الأستاذ، وكل يوم!

وعندما كنت تلميذًا في الجامعة كنت أسكن وحدي في بيت، ولي غرفتان تطلان على الشارع وفهمت من صاحب البيت أنه سوف يهدم الجدار المطل على الشارع ويعيد بناءه لكي يبنى طابقًا علويًا، يعني غرفتي لها ثلاثة جدران، فكأني في الشارع، وكان لابد أن أعود ليلا حتى لا يراني أحد، ولأن التراب يتساقط من السقف فكنت أضع الصحف فوق رأسي وجسمي، أما النافذة والباب فأضعهما متجاورين حتى لا تقفز القطط والكلاب.

وكنت أعزي نفسي فأقول إن الفيلسوف الإغريقي ذيوجانس كان ينام في صندوق الزبالة، فلما جاء الإسكندر الأكبر لزيارته أطل ذيوجانس يقول له: ابعد.. إنك تحجب عني الشمس!

ولو جاءني لقلت له: ابعد فأنت تحجب عني القمر فأنا لا أعود إلى سريري إلا ليلاً.

أما الذي لم يفهمه صاحب البيت فهو أنه فوجئ بأنني أوعزت إلى عمال البناء أن يجعلوا النافذة طويلة عريضة وكلها من الزجاج وعلى حسابي! وانتهت عقدة الشباك الذي يجب أن يظل مغلقًا دائمًا!

كيف عاشوا وأبدعوا في هذه البيوت؟

عندما نزور بيوت العظماء نشعر بالرهبة، بالاحترام لصاحب البيت ولفكره، ونظن أن لهذه الجدران دخلا في عظمته، فلو رأيت شقة الأستاذ العقاد تجدها صغيرة ضيقة وكنا ونحن صغار نراها واسعة ممتدة في الآفاق، ومكتب أستاذنا طه حسين صغير.. إنه يجلس بالقرب من الباب، والجدران كلها كتب. وشقة توفيق الحكيم ندخلها فنشعر أنه ساكن فيها وليس صاحبها، فهو لا يعرف من وضع هذا هنا أو هناك. وفيلا أمير الشعراء شوقي غرفها صغيرة، وسريره صغيره، ومكتبه أيضًا، وقد كان أمير الشعراء صغير الحجم وكذلك قصور الشعراء الكبار: هيجو الفرنسي وجيته الألماني.. ففي إحدى الغرف نجد مكانًا بارزًا في الجدار، فقد كان الشاعر جيته يكتب واقفا بسبب آلام في المصران الغليظ كالعقاد والموسيقار محمد عبد الوهاب والشاعر كامل الشناوي والإمبراطور نابليون. وبيت الشاعر الألماني العظيم هيلدرلن، البيت في الطابق الأرضي يطل على النهر في مدينة تينجن. الشاعر العظيم عاش ثمانين عامًا نصفها في مستشفى الأمراض العقلية، ولكن ما أروع ما قال في الجمال والكون والقداسة، والشاعر الإيطالي دانتي يسكن بيتًا صغيرًا كأنه مشروع بيت، أما شعراء الفرس فقد اختاروا صورًا من الجنة: ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠)

وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ وجاءت العصافير كأنها هي الأخرى ورود طائرة، ولابد أن تتساءل كيف مات الشاعر ا شيرازي والشاعر سعدي ومن حولهما هذه الأبهة الجمالية.

والدنيا تحتفل بمرور قرنيز ونصف على وفاة الموسيقار العبقري موتسارت، وقد زرت بيته كثيرًا في مدينة سالزبورج بالنمسا، فكل شيء يدل على أنه قصير اليدين والرجلين، أما عبقريته فلا طول لها ولا عرض، وإنما وسعت الفن الجميل كله في كل العصور، ولابد أن نتوقف عند آنيته النحاسية التي كان يأكل فيها، أما البيانو فصغير، وأما السرير فصغير أيضًا لأنه كان قصيرًا، وتتوسط السرير مخدة منتفخة بالطول لتفصل بينه وبين زوجته، وكان يصحو في منتصف الليل بسبب اختفاء هذه المخدة ويجدها على الأرض فيضعها عازلا بينه وبين زوجته.

وقد نستنكر ما جاء في فيلم «أماديوس» أي أماديوس موتسارت، فقد صوره بهلوانًا مرحًا ويستخدم ألفاظًا نابية، وكل هذا صحيح فرسائله مليئة بالألفاظ البذيئة، إنه شاب صغير متفجر بالحياة وبالعمل واللعب والأبهة والفوضى. وفي أول الفيلم نجد الموسيقار الإيطالي ساليبري المتهم بوضع السم لموتسارت يجلس أمام موقد، وفوق الموقد صليب المسيح عليه السلام وساليبري يصرخ: يارب، إنني أصلي لك وأرعاك وأتقيك. فكيف تضع عظمتك في شاب قليل الأدب سليط اللسان، كيف تعطيه كل هذه العبقرية وأنا المؤمن الورع لا أحصل على شيء من ذلك، ثم يلقى بالصليب في النار! لقد عاشوا وماتوا وأبدعوا وخلدوا أنفسهم لأنهم لا يشعرون بهذه البيوت الضيقة الخانقة الفقيرة!

بركات الدلاي لاما في أنفي!

ربما كنت أكثر الناس اندهاشًا عندما رأيت الدلاي لاما - وهو الرئيس الروحي لشعب التبت. فقد كنت أول من رآه عندما طردوه من بلاده. واستقر على جبال الهمالايا. وذهبت للقائه. واعترضت الحكومة الهندية. ولكن أفلحت في التسلل إلى حيث يقيم في فيلا صغيرة. هو ينام فيها والمؤمنون ينامون على الأرض أمامها. وكانت دهشتهم عظيمة عندما ذهبت للقائه وعندما عدت أشق طريقي بينهم. لقد أحسوا كأنني أصبحت مقدسًا. وأنني حققت ما يتمناه كل واحد منهم. وكانت حيلتي أنني ادعيت المرض. وأنهم قد لفوا حولي بساطًا. ثم أسقطوني أمام الدلاي لاما. وأنا أقول: مريض جاء من مصر يتمنى الشفاء على يديك.

وكان الشاب الدلاي لاما يبتسم للترجمة التي تولاها رئيس وزرائه. ورئيس الوزراء يتكلم الفرنسية. وكانت ابتسامة ساذجة.. ممكن أن تقول إنها عبيطة. وقلت إنما جئت بالنيابة عن شعب مصر الذي يحبه. ويتمنى مرضاه الشفاء على يديه.

وطلبت أن أصور السيدة والدته أيضًا. ووافق. وقد جاءت والدته ترتدي فستانًا من النايلون. ويبدو أنها سعيدة جدًّا. والمصور الذي

استأجرته لهذه المهمة كنت ة. وعدته بأن يكون مصورًا في الفيلم الذي أعده عن الدلاي لاما. ولما هاجمتني حكومة الصين. كان ردها موجزا وقال: قل للدلاي إننا أطلنا عمره. فقد كان من الضروري أن يموت في نهاية هذا العام، كما تقضي الطقوس الدينية، ليبحث الكهنة بعد ذلك عن طفل آخر يختارونه ويجعلونه زعيمهم الروحي ويحكمون من ورائه وهو لا يدري. قل له يحمد ربنا!

ولابد أنه حمد ربنا أن أعطاه هذا العمر ينتقل بين القارات معززًا من الأميركان ومكرما بفلوسهم، وسلاحًا ضد الصين. وظلوا يعلمونه ويلعبون به حتى حصل على جائزة نوبل للسلام. وعلموه الإنجليزية أيضًا.

ثم ذهب إلى إسرائيل. وفي المرة الأخيرة أعلن عن استعداده للجلوس إلى حماس فلم يلق الاحترام الواجب. لأنهم يخافون على مشاعر الحكومة الصينية. وطبيعي أن يعملوا حسابًا لألف مليون نسمة. ولما طلبت من الدلاي لاما أن يباركني. التفت إلى رئيس وزرائه يسأله عن ديني. فقال له. وسأله كيف يباركون الناس في بلاده وأين هي؟ وترددت كلمة فرعون على لسان رئيس الوزراء ولم يقلها في الترجمة. ويبدو أنه فهم. فقربني منه.. ومن رأسه. وقال كلامًا لم أفهمه طبعًا.. أما البركة التي حلت بي فعلا فهي الزكام الذي حملته أنا طويلا.. إنه الزكام المقدس!

للمرة العشرين والثلاثين: سبحان الله!

سألت شيخ الأزهر صديقي وبلدياتي الراحل الشيخ جاد الحق قلت: كم مرة نذكر الله في صلواتنا في اليوم الواحد؟ قلت له: عندي كتاب به لوحات بعدد أيام السنة، يجعلك تقول الله أكبر، الله أعظم، الله أحكم ألف مرة.

وعندي فيلم يبهرك وتكون ذكراتك وتأملاتك لهذا الفيلم صلوات صادقات، أما الكتاب فهو 365 لوحة فلكية اختارها المؤلف من عشرة آلاف صورة ملونة التقطتها سفن الفضاء الأميركية لهذا الكون حولنا.

أما الفيلم فهو فرنسي، والفيلم يصور الحيوان المنوي وهو يطارد البويضة، ليس حيوانًا واحدًا وإنما يطارد ألوفًا، فقد أفلح العلماء في إدخال كاميرا دقيقة إلى رحم مرأة والتقطت صورًا وأصواتًا لهذا الحيوان الضئيل الصغير المعجز: وهو يجري لاهثًا وراء بويضة لكي يلتحم بها، والحيوان المنوي مختلف الأحجام، هذا له ذيل وهذا بلا ذيل، هذا سريع، وهذا بطيء، وهذا لا يستطيع أن يكمل المشوار، والمسافات والمشاوير صغيرة جدًا، ولكن الكاميرا التلفزيونية في الرحم جعلته كبيرًا طويلا عريضًا، وكان الحيوان كأنه حصان في

سباق وله صوت يلهث، والبويضة تحاول أن تهرب مسرعة إلى داخل الرحم.

كيف هذا؟ هذه الحيوانات ،هذه البويضات بالملايين، ولكن واحدًا فقط يلتحم ببويضة واحدة، وأحيانًا باثنتين وثلاث وأربع، كيف يراها، كيف يتابعها، يطاردها، يعانقها، ويتلاشى الاثنان في شيء واحد يكون بعد ذلك بشرًا.

يقول منتج الفيلم والمؤلف الطبيب إنهما استغرقا أيامًا طويلة، نهارًا وليلاً، لكي يقعَ اختيارهما معًا على هذا الفيلم، ويقولان لم يكن الأمر سهلا، فالمساحة التي تتحرك فيها الكاميرا صغيرة جدًّا، ولكن الكاميرا دقيقة العدسات والميكروفونات، حاولا تكبير الصوت فكان مثل دقات الطبول، مع أنه لا قلب للحيوان المنوي أو للبويضة، ومرة أخرى سجلا أصواتًا كانت أقرب إلى الشهيق والزفير، ومرة كان مثل إنسان يلهث، سبحان الله، كيف يحتوي هذا الحيوان الضئيل على كل صفات الجنس البشري وفي نفس الوقت على صفات الأب وعاداته ونبرة صوته وأنفه ومشيته، أين يحتفظ الحيوان الصغير بكل هذه الصفات الغريبة، ثم كيف تنقل البويضة خصائص الأم، شفتيها أو لون شعرها أو صوتها أو ضحكتها أو مشيتها؟

ورأى شيخ الأزهر جاد الحق على جاد الحق وقال لي: إنها عظمة الله في هذا الكائن الصغير. فقد عدت أخيرًا أتفرج على هذا الفيلم للمرة العشرين، الثلاثين، سبحان الله!

أطفأت السيجارة فعادت الابتسامة الأبدية!

ثلاثة من العلماء وقفوا أمام لوحة (موناليزا) للفنان الكبير دافنشي، هذه اللوحة رسمها سنة 1500، وهي أشهر لوحة في التاريخ، ومنذ ذلك الوقت والناس حائرون بائرون دائخون في فهم ابتسامة هذه السيدة. الابتسامة رقيقة. لكن. فلا أحد يعرف بالضبط ماذا في أعماقها.. واستسلموا إلى غموضها، وإلى أن أي إنسان إذا نظر إليها من أية زاوية فسوف يجدها تبتسم له..

ولكن ثلاثة من العلماء الإنجليز درسوا اللوحة: واحد قال: إذا نظرت إلى عينيها مباشرة فسوف تجد أنها نظرة عادية وابتسامتها عادية. لا لغز ولا غموض، ولا سر. وواحد قال إذا نظرت لها من أي جانب فإنك سوف تشعر بغموض هذه النظرة والابتسامة الرقيقة التي حيَّرت الناس خمسة قرون. أي النظر لها في وجهها.. في عينيها. هنا فقط يسقط السر. والغموض هو نوع من خداع البصر..

يعني إيه؟ لا يهم أبدًا إن كانت نظرة واضحة أو غامضة. إنها جميلة.. وهذا الغموض أكسبها شهرة عالمية. وأحس الناس بشيء آخر يضاف إلى جمال اللوحة، هو المعاني البعيدة التي أرادها الفنان العظيم دافنشي، والذي جعل اللصوص يتابعونها ويتخاطفونها،

ويجدون من الصعب التخلص منها، وبيعها، فهي لوحة وحيدة فريدة قد طمع فيها نابليون وهتلر.. وذهب الاثنان وبقيت اللوحة في أرفع مكان في اللوفر وفي التاريخ أيضًا.. ولكن عددا من النقاد حاولوا أن يغوصوا في أعماق دافنشي وأخذوا من حياته حوادث ونوادر لتفسير هذه اللوحة، قالوا كان دافنشي يستعين بفرقة موسيقية أثناء تصويرها.. وقالوا كان أحد يحكي لها نكتًا ونوادر يجعلها تبتسم ولا تقهقه.

وقالوا بل كانت حاملاً وسعادتها في هذه الابتسامة، فهي لا تبتسم لأحد وإنما تبتسم لنفسها. سعادتها مما تشعر به في أعماقها.. وإن الحمل ليس واضحًا تمامًا. ولكنها هي وحدها التي تشعر بذلك. وإنها هي التي صارحت الفنان. وفي قصة للأديبة الإيطالية شيزارينا نبرو تقول: إنها في يوم رأت موناليزا في نومها فسألتها. قالت لها: إن سعادتي مصدرها أنني لم أكن أحلم بأن فنانا عظيمًا مثل دافنشي يجلس كل هذه الساعات لكي يصورني.. إنني رأيت في عينيه ما أسعدني.. فأنا زوجة سوف تموت هي وزوجها وأولادها.. ولكن هذه اللوحة هي بطاقة السفر إلى الخلود..

وتقول شيزارينا: لن يصدقني أحد إذا قلت له: إنني رأيت موناليزا غاضبة تمامًا. واختفت هذه الابتسامة والسبب أنني وضعت سيجارتي بالقرب منها فراح الدخان يضايقها.. ولما أخمدت سيجارتي عادت الابتسامة الأبدية!

.. من حقي ألا أسمعك!

من أربعين سنة جاء إلى القاهرة العالم الأميركي أدولف روزن – هو أكبر أطباء الأذن والحنجرة واندهشنا عندما قال: أن يظل لأم كلثوم هذا الصوت القوي الجميل فهذه معجزة!

ولكن لماذا؟ قال: إن التلوث الموجود في القاهرة من الصعب أن يجعل حنجرة حساسة ذهبية مثل حنجرة أم كلثوم بهذه القوة! وقال أيضا: إنهم في السودان لايعرفون تسوس الأسنان ولا يعرفون ضغط الدم. والسبب هو: الهدوء الشامل في بلادهم.

أي أن الضوضاء هي سبب تسوس الأسنان وضعف السمع.. ولذلك عندما نذهب إلى السودان نجدهم يتكلمون بصوت منخفض جدًا.. ويدهشنا ذلك. ونحن نتكلم بصوت مرتفع كأننا نخطب. أو كأننا نتحدث إلى الطرشان. والحقيقة أنه لا يوجد طرشان وإنما توجد ضوضاء وحولنا فلابد أن يكون الصوت أعلى.. ولكنهم في السودان ليسوا في حاجة إلى أن يبتلعوا الميكروفونات. حتى عندما يجيئون إلى مصر فأصواتهم خفيضة أيضا. قال لي الدكتور أنور المفتي: إنه عندما كان طالبا في قصر العينى كان من النادر أن نجد أحدًا عنده ارتفاع أو انخفاض في ضغط الدم. وكنا نتحدث عن ذلك ونتمنى لو وقع في أيدينا أحد. والسبب هو هذا الهدوء الشامل في مصر في ذلك الوقت.

وأكثر المجتمعات توترًا و ضطرابًا هي التي تشكو من تسوس الأسنان مثل المجتمع الإسرائيي. مثل الكويت بعد العدوان العراقي، فقد زادت نسبة الإصابة بمرض السكر والاضطرابات العصبية وتسوس الأسنان. فقد كان العدوان عليها تسونامي تاريخيًا.

وأذكر أنني عندما ذهبت إلى بغداد في آخر أيام الرئيس صدام ذهبت إلى حيث يعيش المصريون. في منطقة اسمها المربع. أما الضوضاء والراديوهات المفتوحة على الآخر ورائحة الطعمية فأعرفها تماما، كأنهم نقلوا القاهرة إلى بغداد.. أو كأنهم أرادوا ألا يبرحوا مصر، فنقلوها إلى العراق.

وعندما ظهر الراديو الترانزستور حرمته كثير من الدول الأوروبية وخاصة في الحدائق العامة احترامًا لحرص الآخرين على الصمت. فإذا كان من حقك أن تتكلم ومن تسكت عن الكلام.. فمن حق الآخرين أيضًا ألا تفرض عليهم كلامك وضوضاءك.

وكان الفيلسوف الألماني شوبنهور يقول: قل لي ما هي قدرتك على الصمت أقل لك من أنت!

وأنا لم أشعر أن قلبي له دوي، وأنه ورشة تدق حديدًا بحديد إلا عندما وقفت تحت تلسكوب أحد المراصد في أميركا.. وكنت أنظر إلى السماء.. الله على العظمة الصافية.. الله على الروعة الجميلة.. على الحكمة البليغة.. لقد كانت نظراتي صلوات وكانت أنفاسي ابتهالات.. وضايقني أن قلبي له صوت . فأمام هذا الجلال يجب أن يسكت كلُّ شيء!

لا مكان لدفن كلمنسو!

حاملة الطائرات الفرنسية (كلمنسو) منعوها من أن تموت.. وأن تدفن في قاع المحيط. وليست هذه هي السفينة الوحيدة التي أدركها الموت بسبب الشيخوخة. تفككت وتفتت مئات السفن في عدد كثير من الموانئ في القارات الخمس وفي الجزر أيضا.

وحاملة الطائرات كلمنسو بلغت الخمسين من عمرها وحان موتها. وقد مرت بقناة السويس - ولا خطورة فيها، واتجهت إلى الهند، حيث اشتراها أحد رجال الأعمال الهنود. وفي ميناء الجان، وكان من المنتظر أن يتم تفكيكها وتفتيتها؛ فالأيدي العاملة رخيصة ولم يعد أحد قادرًا على تفكيكها في أوروبا، بسبب ارتفاع أجور العمال وبسبب المخاوف الصحية.. وميناء «الجان» يقع على بعد 500 كيلومتر شمال مدينة بومباي. فهذا الميناء له مزايا في شواطئه ويظهر فيه المد والجزر بصورة واضحة، مما يساعد على تحريك السفينة وتيسير مهمة العاملين في هدمها.. وقد وافقت حكومة الهند على هذه العملية كما وافقت قبل ذلك على تفكيك مئات السفن. لكن جماعة السلام الأخضر لجأوا إلى القضاء واستصدروا قرارا بمنعها

من دخول المياه الهندية. وادعت البحرية الفرنسية أن السفينة تحمل حوالي مائتي طن من مادة الأسبوتس، والحقيقة أنها تحمل أكثر من ألف طن، وهذه المادة سامة، وأبخرة الأسبوتس قاتلة، وقد تسببت في إصابة الكثيرين بسرطان الرئة..

وعدلت المحكمة العليا في الهند عن القرار السابق ومنعت دخولها المياه الهندية.. ومن المعروف أن مادة الأسبوتس غير قابلة للاحتراق. إنها تدخل في كثير من الأفران والأنابيب وعندما تتحول إلى أنسجة تدخل في كثير من الأقمشة ولكن من المؤكد أن بخارها قاتل..

وعادت كلمنسو إلى ميناء طولون الذي خرجت منه في 31 يناير (كانون الثاني) الماضي، مارة بقناة السويس. ولا تعرف الحكومة الفرنسية ما الذي ستفعله بالسفينة بعد أن هاجمتها جماعة السلام الأخضر في كل مكان.

وتقدمت اقتراحات خيالية . فهناك من يرى أنها أنسب مطعم عائم أو سفينة سياحية تجوب البحار، فهي لا تزال قادرة على أن تعيش.. وأن يعيش عليها عمال سياحيون. ثم إن فرنسا لديها استعداد لأن توفر وسائل الحماية للعمال الهنود الذين يعيشون في ظروف مادية صعبة. أجورهم زهيدة.. وفي نفس الوقت يعملون بأدوات بدائية.. وبأيديهم أيضا وبلا حماية. ولا يحاول رجال الأعمال الذين يشترون مثل هذه السفن أن يدفعوا أكثر للأيدي العاملة أو لوقايتهم من السموم أو المرض.

ويقال إن باكستان وبنغلاديش والصين ترى أن الخوف من الأسبوتس في حاملة الطائرات مبالغ فيه جدًا.. وأنه لا مانع لديها من تشغيل الأيدي العاملة، وأن تكسب بضعة ملايين من الدولارات.. وسوف تنظر المحاكم في قضية كلمنسو.. ما إذا كانت ستموت تحت مياه المحيط أو تبقى لا هي حية ولا هي ميتة في مياه البحر الأبيض!

ما أراه جميلا لا تراه كذلك!

الجمال مثل الحب: نسبي.. فالذي أراه جميلا قد لا تراه أنت كذلك. وترى المرأة الجميلة قد تزوجت رجلا دميمًا والعكس. فلا تسأل!

مثلا هذه العبارة أو هذه المعادلة الرياضية رفيعة المستوى: الطاقة = الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء. هذه المعادلة هي التي اكتشفها العالم الفيزيائي أينشتين. وهي تقيس بالضبط قوة انفجار القنبلة الذرية. هذه المعادلة كيف تراها؟ أسهل شيء أن تقول إنها غيرُ مفهومة. ولكن العالم الكبير باولنج الحائز جائزة نوبل مرتين يقول: إنها في غاية الجمال. وفي غاية الرشاقة. آه لو رأيته وهو يقول في الاحتفال بذكرى أينشتين يخيل إليك أنه يرثي مارلين مونرو.. فالوجه قد أشرق والدمعة تكاد تقفز من عينيه! وقد صدر أخيرًا كتاب عنوانه «هذا الكون الرشيق الجميل».. والكتاب يتحدث عن النجوم والسدم وألوانها وأشكالها، ويرى المؤلف أن لا نهاية لروعتها. وأتفرج على المصارعة الحرة. وأستمع للمعلق الرياضي يقول: الله .. رائعة.. خنقة جميلة!

وننظر فنجد أحد اللاعبين على الارض والمنافس قد أمسكه من عنقه يخنقه، والمحلل الرياضي يرى أن هذه الخنقة مطابقة لكل القواعد الرياضية. فهي جميلة!

وكان الرئيس السادات يتناول طعام الإفطار في رمضان ويتحدث عن مزايا الصيام والجوع ويقول: بعد الجوع تجد أن هذا الطعام شيء جميل جدًّا. وأنظر إلى طعام الرئيس فلا أرى فيه أي جمال: طبق سلطة وقطعة لحم وقطعة خبز بالجبنة. ليس!

والأديب الفرنسي الروماني الأصل يونسكو يقول إن مسرحية «الكراسي» إذا لم يذهب الجمهور لمشاهدتها فما أروع ذلك.. فالمسرح نفسه به مقاعد خالية.. وبما أن المسرح هو صورة الواقع، فما أروع القاعة إذا خلت من المقاعد!

وفي محاضرة ألقاها د. دافيد بورشتين وصف الخلايا السرطانية تحت المجهر بأنها رائعة الأشكال والألوان! ولا يستطيع أحد أن يجاريه حتى لو كانت الخلايا جميلة. فصورتها هي الجمال والقرف معًا!

وعندما زرنا قبر الشاعر الإيطالي دانتي إليجري، كان خانقا ليست له نوافذ ورائحته كريهة.. وكان معنا د. حسن عثمان الذي ترجم «الكوميديا الإلهية» من الإيطالية إلى العربية. فلم نكد ندخل الضريح حتى هربنا من الرائحة الكريهة.. ولكنه دخل ولم يشأ أن يخرج.. وكان يقول: إنما أراد الشاعر أن يجعلنا نشعر بالجحيم الذي كتب عنه.. الله على المعنى والدلالة والبلاغة!

وأنت لا تستطيع أن ترى جمال وجلال الكون وأنت في المدينة.. اذهب إلى الصحاري وادخل المراصد وانظر إلى السماء.. الله .. الله.. ما أعظمك وأروعك.. فهذا هو الجمال والجلال معًا. فالجلال هو الجمال وقد أضيفت إليه الرهبة والخشوع وعظيم الاحترام!

لأننا نعيش في خطر!

كلما كان السحاب قاتما، كانت ألوان قوس قزح أكثر لمعانا.. والناس يختارون أن تكون هناك سحب سوداء.. أن تكون هناك أزمة.. وفي مواجهة الأزمة يجدون الحل فإذا لم تكن هناك أزمة، فإنهم يخلقونها، ومن غير التأزم ومن غير التوتر، لا نستطيع أن نعيش.. ففي مواجهة التوتر يكون التحدي، ويكون الإصرار على الحل، ويكون الحل هو الهدف، ولذلك نحتمل الصبر والتعب ونقاوم اليأس..

أما إذا لم يكن هناك توتر ومقاومة وخوف، فالإنسان لا يحقق شيئًا.. انظر إلى الرواد فوق سطح القمر.. إنهم يطيرون ويتساقطون.. فلا شيء يقاومهم.. ولا شيء. دستويفسكي يقول: إذا لم يكن هناك إله فليس أمامنا وحولنا ولا في أعماقنا إلا الفوضى.. فالله هو الذي يمسك الكون ويوجهه ويوجهنا ونحرص عليه وعلى السير والانضباط والاتجاه إلى الهدف الرفيع!

والسفينة في البحر والطائرة في الجو.. والطائرة ترتفع بالهواء وتقاومه وتنطلق به وهو الذي يحطمها أيضًا..

وهناك قاعدة في علم الحيوان تقول: إن الوظيفة تخلق العضو.. أي العضو الذي يؤدي وظيفته يقوى.. والعضو الذي يعطل وظيفته يضمر..

ولذلك فنحن نترك الطفل يحاول المشي ويقع ويقوم، ففي ذلك تقوية لعضلات الساقين والذراعين.. وفي الدول الأوروبية يتركون الطفل يبكي وننزعج لذلك. ولكن لهم نظرية.. فالبكاء يقوي الحنجرة والحبال الصوتية والرئتين.. وفي نفس الوقت يجب ألا يعتاد الطفل أنه عن طريق البكاء يحصل على ما يريد..

وفي أعماق المحيط نجد الأسماك لها عيون ولكن لا ترى.. لأن أعماق المحيط مظلمة، فلأن العين لم تعد لها وظيفة فقد عجزت عن الرؤية.. وكذلك الحشرات في الكهوف المظلمة والتي انعدم فيها الأكسجين أيضًا. ضعفت العين والرئة. وتلاشت تمامًا..

وكان الفيلسوف الألماني العظيم نيتشه ينصح بأن نبني بيوتنا عند قمم البراكين، لماذا؟ لكي نعيش في خطر.. ولم نعد في زماننا هذا في حاجة إلى قمم الجبال لنستشعر الخطر. فالخطر موجود في الشارع وفي البيت وفي كل مكان. فنحن غرقى في المجالات المغناطيسية في السيارة وفي البيت وفي الجو لملوَّث لونًا وصوتا ورائحة. فنحن في خطر. وبسبب هذا الخطر نتفنن في التخلص منه والإفلات من أنيابه ومخالبه.. وإلا فلا حياة ولا معنى لحياة بلا خطر!

إنها مدرسة: الموت وقوفا!

نشأت في مدرسة صحافية شعارها: أتمنى أن أموت واقفا لا أن أموت راكعا!.. إن الإنسان يجب أن يكون كالأشجار يموت واقفا. لا كالذين ينامون في ظلها أو فوق أغصانها. أي أن الإنسان يجب أن يعمل حتى آخر لحظة في حياته. وهي مدرسة «أخبار اليوم» للصحافة الحديثة.. وقد تتلمذت على أساتذة ماتوا وهم يكتبون أو يقرأون: العقاد وطه حسين وعبد الرحمن بدوي وسارتر وهيدجر..

وفي يوم ذهبت أستمع لأم كلثوم في إحدى حفلاتها العامة، أحسست أن صوتها قد ضعف ولم يعد يخرج منسابا ناعمًا كما عودتنا.. وتمنيت ألا تغني بعد ذلك.

ولكن علمت من العازفين حولها أنها لم تدرك هذا الضعف وأن أحدًا لا يجرؤ أن يقول لها ذلك. فقلت ولم لا.. أي ولماذا أحاول أن أقنعها بأن تكتفي بحفلة كل شهرين تمهيدًا لأن تستريح، كما فعل محمد عبد الوهاب. فعبد الوهاب كان أذكى وأكثر واقعية.

ثم إن المؤلف أكثر حرية من المطرب. أي أن عبد الوهاب الموسيقار أكثر حرية من عبد الوهاب المطرب. فهو كمؤلف على

حريته تمامًا. فلا أحد يراه وهو يكتب وهو حائر بين العزف يتمشى ليلا ونهارًا حتى يجد اللحن المناسب. بينما المطرب تتحكم فيه الجماهير وترصد حركاته وضعفه ومرضه..

ففي أول لقاء مع أم كلثوم - التي نحتفل هذه الأيام بذكرى وفاتها- قلت لها: تعرفي ياست لو أن العقاد وطه حسين توقفا عن الكتابة من عشرين عامًا، لكان الذي قدماه للأدب كافيا جدًّا. فقالت: يعني إيه؟ قلت: لو فرضنا أن العقاد مات من عشرين سنة وكذلك طه حسين، فإن التراث الذي تركاه يكفي لأن يجعل من كل منهما أديبًا عظيمًا.. فقالت: يعني إيه؟ قلت: يعني أن الكاتب يجب أن يعرف متى يتوقف عن الكتابة.. يعني إذا وجد صعوبة في الأداء فأفضل له أن يرد نفسه عن الكتابة.. قالت: مش فاهمة.. لكن الفنان أو الأديب يجب أن يفكر وأن يقول ما دام قادرً على العطاء.. أنا قرأت لك أن العقاد كان وهو على فراش الموت يفكر في تفسير جديد للقرآن.. أنت قلت كده! قلت: صحيح ياست.

ولم أستطع أن أقول لها نفس الكلام. فالكاتب يستطيع أن يكتب ويراجع ما يكتبه ويحذف اليوم ويعدل غدًا.. وكذلك الموسيقار، اما المطرب فلا يستطيع أن يقول و يبدل على مسمع ومرأى من الناس.. ثم إن المدرسة قالت لنا عكس ذلك.. صحيح أن أم كلثوم لم تكن من مدرسة «أخبار اليوم» ولكن لولا مساندتها المادية لـ «أخبار اليوم» في بدايتها ما وقفت على أعمدتها، ولا كان لها هذا العدد الكبير من أبنائها الصواريخ في سماء الصحافة!

نرجو أن تكوني جميلة وأجمل!

مش فاهم! هناك حملة سخيفة على البنت الجميلة - أو التي تحاول أن تكون جميلة أو أجمل. وما عيبها وما ضررها . فنحن لا نعترض على المرأة إذا وضعت الأحمر والأبيض والأزرق والأخضر والأسود. فنحن نريدها تحفة فنية من صنع الله أو من صنع أصابعها وما لا نهاية من شركات إنتاج وتوزيع أدوات التجميل - وهي أعظم صناعة في الدنيا.

هي تفعل ذلك. ونحن نوافق. بل نرجوها ألا تكف عن ذلك!

ولما ذهبت المرأة إلى أعمق من ذلك، بأن تتجمل عند أطباء جراحة التجميل ولنفس السبب.. فما عيبها؟ إنها تريد أن تكون كما نريد ونحب. أن يكون جمالها أعمق.. أي أن تنتقل من الرسم إلى النحت.. فجمال البشرة رسم تشكيلي وعمليات التجميل هي نحت.. يصغر الأنف ويكبر النهدين والردفين.. لابأس. فنحن في جميع الأحوال قد كسبنا جمالا. وهي قد كسبت إعجابا، وشركات التجميل والجراحون كلهم قد كسبوا، ولم تعد المرأة تخفي أنها تجمَّلت.. تمامًا كما أنها ليست في حاجة إلى أن تقول إنها وضعت الماكياج. لابأس أيضًا. وليست المرأة في لبنان وحدها، وإنما في كل الدنيا وربما كانت

الفتاة اللبنانية أشجع. فهي تعترف بأنها ذهبت إلى الطبيب فلان وأجرت عمليات في الخدين والشفتين.. فلم يعد ذلك سرًّا، ولا عيب فيه!

ثم إن هذا يؤدي إلى نوع ثالث من الجمال والتجمل وهو الراحة النفسية. والرضا عن النفس. وهي أعلى درجات الجمال وليس أقسى على الإنسان من أن يكون ساخطًا على نفسه وأن يكون عدوًّا لها. فإذا كنت عدو نفسك فقد سلطت على نفسك من لا يرحمك ليلا ونهارًا!

ونحن لم نعترض على ملابس المرأة التي تعري وتخفي، ولا اعترضنا على حذاء المرأة الذي يرفعها عن الأرض ويرجرجها. وفي ذلك جمال موسيقى يعجبنا..، ولم نعترض على الحزام الذي يزم خصرها.. ولا على السوتيان الذي يشد نهديها، ولا على الكورسيه الذي يضغط ردفيها..

بل ندعوها إذا استطاعت ألا تتأخر لحظة عن أن تكون جميلة أو أكثر جمالا.. فلا تزال المرأة أقوى وأبدع ما خلق الله.. ربما كان الشيء الوحيد الذي لم تفلح هي ولا أفلح الأطباء في تجميله هو لسانها. فليكن! فاللوحات والتماثيل والجبال والوديان والسحب والينابيع والنافورات – كلها جميلة ولا تتكلم وإنما نحن الذين نتكلم.. ونحمد الله أنها جميعًا بلا لسان وإلا انقلبت هذه الجنات إلى جهنم.. ولذلك فسعادتنا أن نهرب من واحدة للأخرى وأن نستمتع وأن نقول نثرًا وشعرًا وموسيقى ولوحات وتماثيل!

أطول ساعتين في تاريخ مصر!

لا تهمني كرة القدم كثيرًا.. ولكن حيانا أتفرج لكي أكتب عن الذين يتفرجون.. فكرة القدم مثل الهموم الكبرى التي تشغل الناس وتذيب الفوارق بينهم.. فالكبير والصغير يتحدثون ويتناقشون وينتقدون ويتعصبون لأحد الأندية أو لأحد اللاعبين.. وقد لاحظت أن الأطفال في الأسرة يعرفون أسماء اللاعبين الإنجليز والإسبان.. ويعرفون أين يلعبون وكيف يكسبون. ولا معنى للاندهاش لهذه الاهتمامات الخاصة وصور اللاعبين العالميين معلقة على جدران غرفهم وفي كتبهم.. ثم إنهم يجلسون بالساعات لمشاهدة المباريات الدولية. أما اللاعبون المصريون فيعرفونهم أكثر.. ويحاولون اللقاء بهم في الملاعب. أما في ذلك اليوم، يوم نهائي كأس الدول الإفريقية فلا حديث لكل الناس إلا ما سوف يحدث. وهناك آراء ونظريات وتوقعات ومضاربات في بورصة الرياضة..

وأكثر الناس يرون أو يتمنون أن تكسب مصر.. والخلاف على عدد الأهداف التي سوف تتفوق بها مصر ولماذا.. إذن هو يوم مصري صميم.. أو يوم لمصر.. ووجدتني مشغولاً.. ثم مشغولاً جدًّا.. ووجدت الكثيرين تواجههم صعوبة في الحصول على تذاكر استاد القاهرة. وكاد يغمى على عدد من الأقارب عندما قلت إنني تلقيت هدية أربع

تذاكر في المقصورة.. وبحركة لاشعورية مزقتها، لأنني لن أذهب إلى مشاهدة المباراة في الملعب!!

وكنت في جدة بالسعودية.. ومنعني الحياء أن أطلب من أحد الأصدقاء مشاهدة المباراة معه في بيته أو في أحد الأندية الرياضية، وفهمت أنني أستطيع أن أري المباراة في الفندق.

وجلست أتابع أطول ساعتين في تاريخ مصر.. ولا أعرف أي أحد من اللاعبين. ومر الشوط الأول مرهقًا للأعصاب. وجاء الشوط الثاني أكثر إرهاقًا. وانتهت المباراة. وتحولت قناة (إيه. آر. تي) إلى إذاعة الدورة الشتوية للألعاب الأوليمبية.. وانتظرت بعض الوقت. ومضى التليفزيون يتحدث عن الاستعداد الأوروبي للمتسابقين العالميين. وتلقيت برقيات التهنئة من مصر ومن المصريين في إسرائيل. وحاولت أن أعرف كيف انتصرنا بركلات الجزاء .. فلم أستطع أن أجد أحدًا يرد على الهاتف. بل إن كل الناس مشغولون.. ثم إن الشبكة كلها مشغولة. حاولت كثيرًا أن أعرف من الذي أصاب ومن الذي خاب. ولم أجد إلا حلاً واحدًا هو الاتصال بالمصريين في أستراليا وكندا. فطلبت الزميل د. رفعت فودة في مدينة برث باستراليا. وابن العم د. رؤوف عبد المنعم منصور في مونتريال بكندا. ولم أفهم ما الذي تقوله زوجته الفرنسية. فاتصلت بالزميل أيمن الشهاوي في جوهانسبرج. ووجدت ابنه الصغير يقول: مبارك أي مبروك. وأغلق الهاتف وبس.

وأخيرًا وجدت الزميل إسماعيل نور الدين في الدار البيضاء بالمغرب.. فقالت لي زوجته الفرنسية: مبروك.. والخواجه.. (وكل أسماء اللاعبين مع حذف العين والحاء).. فليسيتاسيون (مبروك)..

ثم أويت إلى الفراش.. ولم تنم مصر كلها!

أكبر عين نفتحها على الكون!

الفيلسوف الألماني إشبنجلر هو الذي قال «إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يصنع أدوات حياته وموته».

ولولا أن الإنسان يستطيع أن يضم أصابعه بعضها إلى جوار بعض ما أفلح في صناعة شيء.. وهذا هو الفارق بين الإنسان والقرد وبقية الحيوانات. ولكي يضم الإنسان أصابعه لابد من عقل مركزي يدير كل ذلك.. ومن عقل وإبداع وخيال.

والتكنولوجيا معناها: تطبيق العلوم النظرية. فكل ما يصنعه الإنسان هو الأطراف الصناعية.. فالسيارة والطيارة بدلا من الساقين.. والهاتف بدلا من الحنجرة والعدسات والتلسكوبات بدلا من العينين، والراديو بدلا من الأذنين..

وهذه الأطراف الصناعية توسع مجال الرؤية والسمع والحركة والانطلاق على الأرض وفي الماء وفي الفضاء. وكلما اخترع الإنسان عيونا أكبر رأى من الدنيا ما هو أكبر.. فالميكروسكوب يرى الميكروبات والذرات.. ويرى حركة الاجسام التي هي واحد من ألف مليون من المليمتر، وهي تتحرك بسرعة واحد على ألف مليون من

الثانية. كيف؟! هذه هي الأطراف التي صنعها الإنسان ليسد عجز الأطراف الطبيعية.

وعلماء الفلك يتحدثون اليوم عن أكبر عين من صنع الإنسان يفتحها على الكون.. إنها مرصد فضائي له عدسة في حجم ملعب كرة القدم ومكونة من عشرة آلاف قطعة من الزجاج، يتم تركيبها بالاستعانة بالكمبيوتر، يحلمون بأن يكون هذا المرصد على ارتفاع ثلاثة كيلومترات من الأرض.. وتحته بكيلومتر سوف توجد هيئة كبار علماء الفلك، يرصدون ما يبعث هذا المرصد الفريد في نوعه، الذي سوف يتكلف ألف مليون دولار. ولكن هذا المرصد الجديد سوف يكون قادرًا على رصد الاكسجين لا في الكواكب ولا في الأقمار التابعة لها، وإنما في أي قمر تابع لأي كوكب في أية منظومة شمسية في هذا الكون اللانهائي. وكلمة اللانهائي ليست تعبيرًا مجازيًّا بمعنى الكبير جدًّا.. وإنما بالمعنى الحرفي.. فنحن لا نعرف نهاية لهذا الكون.. أو بدايته في المكان والزمان.. ونحن لا نخجل من أن نقول ذلك، لا أنت ولا أنا فقط.. وإنما أكبر العلماء أيضًا. فلم نوت من العلم إلا قليلا نحاول أن نجعله كثيرًا!

وسوف ترتفع هذه العين في أكثر مناطق الدنيا جفافا وصفاء. فوق صحراء اتكاما في شيلي.. وفي هذه المنطقة توجد مراصد أرضية أميركية وبريطانية وفرنسية.. ويحاول كثير من الدول أن يشارك في هذه الثورة العلمية.. أي في تغيير الكثير من نظريات الرصد الضوئي والصوتي.. وفي إعاشة العلماء بصورة مختلفة على هذا الارتفاع من الأرض وبملابس خاصة وطعام جديد.. فقليلا من الصبر الجميل.. وسوف نرى!

جويس منصور: أديبة من مصر!

إن الإنسان ينسى.. والشاعر القديم هو الذي قال:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه وما سمي القلب إلا أنه يتقلب وقد نسي الذين نشروا هذا الأسبوع في الصحف العربية والمجلات المصرية أنهم هاجموني واستنكروا ما كتبت عن الأديبة المصرية اليهودية جويس منصور.

والتحدث عن شجاعتها وموهبتها الفنية التي لاحدود ولا أسوار لها!! فليس من الضروري أن تدخل موهبتها في قوالب حديدية قديمة، فليست كل الأضواء من مصابيح الغاز ولا كلها من الكهرباء فالشمس والنجوم لايحدها شيء من زجاج أو من حديد.

واليوم تتحدث المجلات عن الترجمة الجديدة لقصائد جويس منصور من ديوانها «صرخات». وكنت أول من كتب عنها سنة 1949 وأول من أشاد بها وأشار إليها كثيرًا . وفي الخمسينات كتبت عنها وعن غادة السَّمَّان وكتابها «عيناك قدري» وعن ليلى بعلبكي وكتابها «أنا أحيا» .. وعن ديوان «صرخات» لجويس منصور.

وجويس منصور مصرية الأصل بريطانية الجنسية، ولغتها الأولى هي الفرنسية. وكانت لنا جلسات وندوات ومناقشات مع شباب

مثقفين في مصر في ذلك الوقت: جورج حنين وزوجته بولا العلايلي حفيدة أمير الشعراء شوقي ولطف الله سليمان بلدياتي، وهو من دعاة الشيوعية. وكان مستشارًا للرئيس بن بللا مع عدد من الشيوعيين المصريين. ورغم الاختلاف بيننا - فأنا أنتسب للفلسفة الوجودية وضد الشيوعية. وكان الأستاذ العقاد يتوقف عندما يسخر منا جميعًا ويمضي من مكتبة إلى مكتبة. والعقاد يسخر من كل من قيد على حرية الإنسان أو تحديد إقامة لكرامته. فالشيوعيون هم أسوأ الناس والوجوديون هم أضعف الناس - هذا رأيه.

وانشغل كل منا بحياته وفي حياته.. وذهبنا كلٌّ في طريق - كما تقول أم كلثوم. وامتلأت حياتي بعشرات غيرها من الكتاب والفنانين. ونسيتها. وفجأة وجدت أستاذي د. عبد الرحمن بدوي قد أرسل لي قصاصة من صحيفة «لوموندا» الفرنسية بأن جويس منصور توفيت.. وحضر جنازتها مئات من الأدباء والمفكرين والفلاسفة والرسامين، فما الذي بقي من جويس منصور؟

نحن في مثل هذا الموقف أمام: الشخص والشخصية. والشخصية، أي صفاته ومميزاته وأفكاره.. أما الشخص فجسمه ورسمه ووظيفته ولونه ودينه. أما الشخص فيموت وأما الشخصية فلا تموت. وكانت جويس شهابًا خاطفا للعين.. ظهر وبسرعة اختفى.. والذين كتبوا عنها أخيرا يقولون ما أعظمها ما أروعها ما أصدقها. ومع أنني لم أقل كل ذلك، فقد ثاروا وفاروا. ثم غاروا. إنهم ينسون!

القبور لم تعرف الصمت!

في وقت واحد اكتشف علماء الآثار في مصر واليونان شيئًا جديدًا في سلسلة (القبور تتكلم)، فلا يزال لدى الموتى كلام يقولونه، وهذه الاكتشافات تؤكد أن النقطة في نهاية السطر لم يحن بعد موعدها، فعلماء الآثار في اليونان وجدوا تحت أرض مدينة (مبلا) مقبرة كبرى من ثماني غرف، وهذه المقبرة كانت لنبلاء لهم علاقة بالأسرة المالكة، وهذه المدينة كانت عاصمة مقدونيا أيام الملك فيليب والد الإسكندر الأكبر، ووجدوا نصوصًا كاملة عن الحياة والحب والخمر، وكيف اختلطت معًا فوق سطح الأرض. ثم استأنفوا وضعها تحت الأرض لكي يجدها المتوفى عندما يعود إلى الحياة!

وفي وادي الملوك بمصر اكتشف علماء الآثار الأمريكان مقابر على مسافة خمسة أمتار من مقبرة توت عنخ آمون التي هزت العالم يوم اكتشافها من 84 عامًا؛ فالملك توت الذي توفي عن 19 عامًا، حكم منها عشر سنوات، عاش لغزًا ومات لغزًا، ولا يزال، فمن رأي العلماء أنه مات قتيلاً. والدليل على ذلك أثر في الجمجمة، ثم كشفت الأشعة أنه لا توجد أية آثار في دماغه، وأنه مات ولم يقتله أحد، مات بسبب مضاعفات في ساقه التي انكسرت، واكتشف الأثريون الإسبان أن

الملك توت كان يشرب النبيذ الأحمر، وأن المصريين هم أول من كتب على آنية النبيذ متى زرع ومتى عنقوه ومدى صلاحيته!

ووجدوا مومياء يقال إنها للملكة نفرتيتي، التي لم يكمل الفنان تمثالها النصفي، فكانت بعين واحدة، وهي ليست مصرية وإنما أجنبية، وهذه المقبرة تعتبر أعظم الاكتشافات بعد فتح مقبرة الملك توت.

وعلماء الآثار اليونانيون يتحدثون عن مقبرة الإسكندر الأكبر، وقد عاشت مصر عشرين عامًا تنتظر ما يفعله أحد اليونانيين في بحثه عن مقبرة الإسكندر تحت شوارع مدينة الإسكندرية، هذا الرجل أضاع عمره وماله بحثًا عن الإسكندر فلم يجده، لا هو وجده ولا علماء الآثار وجدوه هناك.

والذين ماتوا من فراعنة مصر لم يكفوا عن الكلام، فكل يوم نجد تحت التراب آثارًا ناطقة بالألوان والمعادن على الجدران وفي التوابيت، ولأن الموتى لا يموتون تمامًا، وإنما يتكلمون؛ أي أنهم أضافوا لأعمارهم أعمارا أخرى يقولون فيها جديدا لم نكن نعرفه.

وقد سقطت نظريات كثيرة فقالوا إن الذي قتل الملك توت الملك الذي خلفه على الحكم، وقالو مات مسمومًا، وقالوا مات بالسكتة المخية، وقالوا مؤامرة، وقد ثاروا عليه لأنه حاول أن يقضي على ديانة التوحيد، وأن ينعش ديانة تعدد الآلهة، وسوف يقال كلام كثير وليس صحيحًا ما نقول: إنه صمت القبور، فالقبور لا تزال تتكلم عندنا وفي أماكن أخرى من العالم.

«حماس» وطربوش حافظ إبراهيم

كان الشاعر المصري الكبير حافظ إبراهيم الملقب بشاعر النيل، ظريفًا خفيف الدم وابن نكتة. فقال إنه ركب الترام فجاءه أحد الناس البسطاء يرجوه أن يقرأ له خطابًا، فقال له حافظ إبراهيم: لا أعرف القراءة، فنظر إليه الرجل البسيط وقال له: لا تقرأ وترتدي الطربوش! فخلع حافظ إبراهيم الطربوش ووضعه على رأسه: اقرأ أنت!

وهذا ما حدث أخيرًا، فقد اكتسحت «حماس» الانتخابات في فلسطين وفي استطاعتها الآن أن تحكم، وأن ترتدي طربوش حافظ إبراهيم، وتقرأ ما كانت تقرأه منظمة فتح التي اتهمتها «حماس» بالانحراف والخيانة وبيع القضية لصالح إسرائيل.

والآن وقد ارتدت «حماس» الطربوش، والعالم يريد أن يعرف كيف تستطيع «حماس» أن تحل القضية، ولكي تحل القضية لا بد أن تعترف بإسرائيل، ولكي تعترف بإسرائيل لا بد أن تتفاوض معها على الهدنة وعلى السلام وعلى تحويل فلوسها من البنوك، والدخول إليها والخروج منها وإقناع العالم بأن يساعدها، ابتداء من أمريكا وانتهاء بمنظمة التحرير الفلسطينية.

ولكي تعترف بإسرائيل، لا بد أن تعلن أنها لا تريد القضاء على إسرائيل، ولا بد أن تلقي سلاحها وأن تكف عن أعمال العنف أو القتل، وأشياء أخرى كثيرة!

وإذا قررت «حماس» أن تستعين برجال «فتح» في حكومة ائتلافية لكي يتفاوضوا مع إسرائيل، فسوف ترفض إسرائيل تمامًا، فليس من المنطقي أن تتفاوض مع وزير عضو في حكومة ترفض إسرائيل، وترى أنها لا حق لها في البقاء، إنها قضية صعبة معقدة.. إنها كل تاريخ الكفاح المسلح والكفاح غير المسلح.. إنها أكبر من شماتة «فتح» في «حماس»، ثم إن «حماس» جاءت بأسلوب ديمقراطي، فإذا كان هناك عيب فليس فيها، وإنما في الديمقراطية التي أعطت الشعب حق الاختيار فاختار «حماس»!

ولا تستطيع الدول العربية كلها وبربطة المعلم أن تعطي فلسطين ما تأخذه من أوروبا وأمريكا. إنها مشكلة وعقدة العقد، ولا بد أن تجد «حماس» حلاً، وليس بدعًا في السياسة أن تتغير المواقع والمواقف، ليس من السياسة ألا تكون هناك مرونة، وكارثة الكوارث أن نضيع هذه الفرصة، وقد سمعت من سفير إسرائيل في مصر أن الجو العام في إسرائيل قد تغير، فهناك من يقول إذا كانت القدس هي سبب هذه الضحايا والقلق، فنحن لا نريدها، وإنما نريد أن نعيش دولتين: إسرائيل وفلسطين وفي سلام!

وبعضنا أيضًا يشوه صورة الرسول!

إننا غضبنا للصور الكاريكاتورية التي رسمها الفنانون الدانماركيون للرسول عليه الصلاة والسلام، فمقامه العظيم لا يصح أن يتناوله أحد بهذه الخفة.. أو بشيء آخر غير الاحترام العظيم لمقامه الرفيع عند ألف مليون مسلم.

وقيل إنهم يفعلون ذلك مع السيد المسيح، فهناك أفلام عن عذاب المسيح، وكيف يتعذب ويئن ويحمل صليبه في طريق الآلام إلى قمة جبل الجلجثة، في عشرات الأفلام، ولا يرون في ذلك إهانة للمسيح، وفي العام الماضي ظهرت دراسة تقول إن المسيح عليه السلام كان يحب السيدة مريم المجدلية، ودراسات عن أخوة المسيح، والديانة البروتستانتية ترى أن مريم العذراء هي سيدة عادية ولكن ابنها المسيح غير عادي، بينما المسلمون والكاثوليك والأرثوذكس يؤمنون بأن السيدة مريم عذراء – هكذا قال ربنا، آمنا بالله.

وغضبنا وثرنا وتظاهرنا.

ولكن ما الذي يفعله بعضنا بالرسول عليه الصلاة والسلام؟ إن الذي يفعله هذا البعض ليلاً ونهارًا على الشاشات وفي الصحف أسوأ

كثيرًا جدًّا مما فعله فنانو الدانمارك، فهم ينسبون للرسول عليه الصلاة والسلام أحاديث كاذبة وغير منطقية وغير معقولة، ويصرفوننا عن جوهر الدين، ويشغلون الناس عن دينهم بأكاذيب وخرافات، مثلا:

أحد العلماء يقول: إن المرأة لا حق لها في أن تزيل الشعر بين الحاجبين إلا بأمر زوجها، ويشدد على ذلك، هل هذا معقول؟ وأية جريمة في هذا، وماذا لو فعلت هذا الشيء التافه، وهل من المعقول أن يقف الإسلام كله بعظمته وجلاله على شعرة واحدة هنا أو هناك؟!.

أحد علماء مصر يقول عن تحريم وجود الكلاب في البيت، ويرى أن الكلاب الحلال هي التي للحراسة أو الدراسة أو للبيع أو الشراء، أما الكلاب التي نحبها ونلعب بها ونرى أنها ألطف وأخلص من بني آدم، فهذا حرام، لماذا؟ وإذا كانت ملايين الكلاب تسعد مئات ملايين الناس، بل إن بعض الناس يتركون ثرواتهم لكلابهم، أي ضرر في ذلك. يقول صاحب الفضيلة إن وجود الكلاب في البيت يطرد الملائكة – والحديث عن فلان وعلان.

هل من المعقول أن نجيب عن هذا السؤال وأن نشغل الناس وننشغل أيضًا: ماذا يحدث إذا عاش الإنسان في الشمس، وهي لا تغيب فكيف نعرف مواقيت الصلاة؟! فيكون الرد عليه: إن هذا مستحيل، ويكون الرد على الرد: نفرض، يا أخي نفرض!

وتدور مناقشة حول ذلك، فهل هذا معقول؟

فإذا اختلفنا لجأنا إلى القنبلة!

بل الحيوان المنوي هو المعجزة!

في كتاب ضخم فخم في 700 صفحة من تأليف عدد من الأساتذة في التاريخ والفيزياء والفلك، وقدم لهم جميعًا الأديب كولن ويلسون أحد زعماء أدب (الشبان الساخطين) في بريطانيا، الكتاب موضوعه: الألغاز التي لم نجد لها حلاً. أهمها: الأطباق الطائرة، واسمها العلمي (أوفو) أو (الأشياء الطائرة التي لم نتعرف عليها)، وهي ظاهرة قديمة، جاءت في الكتاب المقدس وتحدث عنها أبو التاريخ هيرودوت، فقد رآها في سماء مصر الفرعونية، ولكن انتشرت بصورة وبائية في العالم سنة 1947 على شكل كواكب أو نجوم لامعة أو كرات من النار أو بالونات وانطلق سلاح الطيران الأمريكي يطاردها ولكن لم نعرف حتى الآن ما هي.

ولغز وحش بحيرة (نسي) في إسكتلندا، فقد بدأ الناس في سنة 1930 يرون أشكالاً لكائنات غريبة في (لوخ نسي) أو بحيرة نسي، يرون سمكة كبيرة أو حوتًا على شكل إنسان، وحاولت كثير من الهيئات العلمية أن تعرف ما هو وصوروه وأنزلوا أجهزة التسجيل تحت الماء، ولكن لم يهتد أحد – علميًا – إلى تفسير هذه الظاهرة أو هذه الخرافة، ولكنها أدت إلى رواج سياحي حول البحيرة!

وكذلك القارة الغارقة أو الجنة المفقودة، قارة (أطلانطس)، هذه القارة عرفها العالم نقلاً عن الكهنة الفراعنة، ونقلها الإغريق إلى بلادهم، وكتب عنها الفيلسوف أفلاطون في كتابيه تيماوسي وكريتياس، وقال: إنها كانت موجودة قبل عشرة آلاف سنة وأن هذه الجزيرة قد أغرقها الطوفان أو زلزال في قاع الماء، ولكن أي ماء؟ يقال في البحر الأبيض ويقال في المحيط الأطلسي.

ولغز (مثلث برمودة) أو جزر الشيطان وهي مساحة من الماء تبلغ أربعة ملايين كيلو متر بين جزيرة برمودة وجمهورية بورتوريكو وفلوريدا، فقد اختفت فيها سفن كثيرة لأسباب غير معروفة، حتى الطائرات التي راحت تبحث عن هذه السفن اختفت هي أيضًا، ومن أشهرها حادثة اختفاء خمس طائرات استطلاع أمريكية في ديسمبر سنة 1945، وسفن أخرى اختفى الركاب تاركين طعامهم ساخنًا وفراشهم نظيفًا، كيف؟ لا أحد يعرف.

ثم سفينة نوح التي استقرت فوق قمة جبل، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، والجبل اسمه الجودي، واسمه أيضًا أرارات على حدود تركيا وأرمنيا، وفي الكتاب المقدس وفي القرآن الكريم أن سيدنا نوحًا قد نقل معه من كل زوجين اثنين، وكانت سفينة ضخمة، وحاول المكتشفون الاهتداء إلى مكان السفينة في القمة الجليدية، حاولوا تصويرها من كاميرات سفن الفضاء، وحاولوا التسلق إليها، ولكنهم لم يجدوا شيئًا.

وأخيرًا خريطة (الريس بيري) الموجودة في مكتبة (طوب كابي) بإسطنبول، الخريطة تصور الهيئة الفلكية للقطب الجنوبي، الصورة

من الجو ومن عشرة آلاف سنة، كيف؟ علماء الجيولوجيا يؤكدون أن الصورة دقيقة فهكذا كان القطب الجنوبي في ذلك الوقت!

ولو كان أستاذنا عباس العقاد حيًا لضحك كثيرًا جدًا، فهو يرى أن لغز الألغاز معجزة المعجزات هو الحيوان المنوي الذي ينقل صفات الأبوين وعاداتهم، كيف؟ وأين؟ هذه هي أعظم معجزات الله سبحانه وتعالى - وهي أهم وأخطر من الكون حولنا!

الأحذية: خلاخيل الرجال!

نظرتنا لأنفسنا ضيقة، قليلون ينظرون إلينا نظرة واسعة شاملة، فالحلاق ينظر إلى قفاك، والترزي ينظر إلى ملابسك وطبيب الأسنان وطبيب العيون، والجزمجي يعرف من أنت إذا نظر إلى حذائك، فهي مقياس لمقدرتك المالية ولذوقك ومدى انسجامها مع بقية ملابسك، الجورب والبدلة والكرافتة.

وكان الأديب الانجليزي هـ . ج. ولز في شبابه يعمل في أحد المحلات تحت الأرض، وله نافذة تطل على الشارع، على أحذية المارة، وكان يعرف فئات الناس من النظر إلى الأحذية الغليظة والرفيعة واللامعة وأنواع الجلود، وكان يرى أحذية قديمة نظيفة، ويحلل ويحكم على الناس، ويرى أحذية جديدة عليها تراب أو طين، ويحلل ويطلق أحكامًا على أصحابها.وإذا رخصت الأحذية، كان ذلك دليلاً على وفرة الجلود المستوردة من أستراليا، فإذا مرضت الأغنام والأبقار ارتفعت أسعار الأحذية.

وكان ولز يقول: أنا أتفق مع المرأة في نظرتها إلى الرجل فهي تنظر إلى حذائه وإلى أظافره، ولذلك فالرجال الذئاب حريصون على لمعان الحذاء والأظافر، لأنهم يريدون أن يكسبوا موقعًا عند المرأة.

ولكن في الصين يرون أن للحذاء ميزة أخرى.. الحذاء الصغير يدل على أن القدم صغيرة، وهذا من معالم الجمال في المرأة، ولذلك يضعون في قدمها حذاء جافًا وأحيانًا من الحديد حتى لا تكبر قدمها مثل الرجال.

وكنت أرى أحذية الأستاذ العقاد قد ملأت أرضية الغرفة، وكلها أكبر من قدميه ويقول: إنه يريد راحة لقدميه، وليس سجنًا لهما، والحذاء الضيق وجع في القدم والساق وصداع للرأس!

وفي مدينة هافانا بكوبا زرت بيت الأديب الأميركي همنجواي، والذي لفتني كثرة الأحذية على الأرض وكثرة الأقلام على المكتب، مئات الأقلام وعشرات الأحذية، وكانت هذه الأقلام رصاصًا يطلقه على الأفكار الشاردة والواردة فإذا هي تسقط على الورق. والإمام علي بن أبي طالب له حكمة بليغة تقول: استجيدوا النعال فإنها خلاخيل الرجال.

وله حكمة أخرى تقول: تمام جمال المرأة في خفها، وتمام جمال الرجل في كمته – أي عمامته!

ولكن العاشق لايرى شيئًا من كل ذلك، حتى قال أحد العاشقين: إنها إذا وضعت نعلها في مجلس القوم تضوع عطرًا – تصور!

هذه النيازك في حياتنا!

في حياة كل منا شخصيات كثيرة عابرة، وشخصيات مستقرة وشخصيات كأنها أقمار أو شموس، وشخصيات كأنها ظلال. عرفت زملاء في الدراسة بهروني بذكائهم، بفصاحتهم، بثورتهم الفكرية، ولأسباب لا أعرفها اختفوا، وكانت ثورتهم مثل أعمارهم قصيرة، فما الذي جرى لهم؟ ما الذي جرى وجار عليهم؟ عرفت عددًا منهم، ولولا أن أحدًا لم يشعر بهم، لأنهم لم يتركوا أثرًا في ورقة أو في لوحة أو على حجر، لذكرت أسماءهم. ولكن حدث في حياتنا الثقافية أن ظهر عدد منهم، لمعوا، أضاءوا، بهروا، وكما بهرونا سريعًا، اختفوا، خبوا، انطفأوا، اندثروا، لماذا؟ عرفت د. يوسف شوقي أحد علماء الموسيقى في زماننا، وأكثر الناس وعيًا بها وتاريخها وكان متفجر الحيوية في كل اتجاه، كان أديبا وذواقًا للشعر وعازفًا على العود.. محمد عبد الوهاب قال إنه أمهر عازف على العود. وقال آخرون بل أمهر العازفين السنباطي، فعندما تقدم لمعهد الموسيقى طالبًا جعلوه مدرسًا للعود. وقال لي الفنان الموسيقار منير مراد إن أعظم عازف على العود هو فريد الأطرش.

ذهب د. يوسف شوقي إلى سلطنة عمان وسجل الموسيقى الشعبية، وتوفي وأوصى أن يدفن- حيث أحبه واحترمه الناس - في سلطنة عمان. الذين عرفوا د. يوسف شوقي قالوا إنه غريب الأطوار، شجاع، ولكنه في الحقيقة شديد الخوف، لماذا؟ من ماذا؟ لقد مات وسره معه!

والمفكر الفنان الجغرافي د. جمال حمدان رجل منضبط شديد الانطواء، أغلق على نفسه الباب والشباك، ولكي تتحدث إليه كان لا بد أن تلقي بالسؤال من تحت الباب، وغالبًا لا يرد، وهو أطلق على نفسه فيلسوف المكان. وما كتبه عن الجغرافيا كان تاريخًا وفلسفة وشعرًا. انتحر! لماذا؟ قيل كلام كثير ولكنه رأى أن حياته وموهبته لا معنى لها، ولم ينتظر أن يقول له أحد ذلك، قال لنفسه وحاكم نفسه وأدانها، فكان القاضي والجلاد - منتهى القسوة على نفسه وعلينا أيضًا!

وكذلك أستاذنا في الفلسفة د. عبد الرحمن بدوي. أنا اقتربت منه كثيرًا واختارني مدرسًا للفلسفة معه، وكنت أقرب تلاميذه وأكثرهم حبًّا له، درس لنا الفلسفة الوجودية، وكانت الدراسة شاقة، وقمت أنا أيضًا بتدريس الفلسفة الوجودية في الجامعة، والفارق بيننا، أنه يكتب الفلسفة لأمثالي من المتخصصين، وأنا أكتبها لعامة الناس وأقلهم ثقافة، استغرق في البحث الفلسفي بست لغات. وفتح لنا أبواب النظريات الفلسفية في كل الحضارات، فهبت علينا رياح وعواصف تزلزل عقولنا وإيماننا، ولكنه بحار طيار غواص، ومشينا وراءه ولم نعرف من هو، لم نعرف إلا ما أراد أن نعرفه، والذي عرفته عنه قليل جدًّا، حتى أقرب الناس إليه لا يعرفونه، ترك مصر إلى الكويت وليبيا وأقام طويلاً في فرنسا، وسقط في الشوارع وظل مجهولاً في

المستشفى شهورًا، حتى عرفت أين هو، وحاولت أن أخفف عنه فقلت له إن مصر رشحتك لجائزة نوبل.

ولكنه يريد أن يعالجه أحد على نفقة الدولة، ونقلناه إلى مصر وراح يسأل عني ولكنى لم أره – م أشأ أن أراه في أسوأ صورة، فقد كان بطلاً أسطوريًّا، اختفوا كلهم، وماتوا وحدهم، أضاءوا مثل النيازك والمذنبات، جاءوا ومضوا من أين إلى أين، ولماذا؟ أعطوا كل ما لديهم. ولم يعطهم أحد شيئًا.

خطاباتهم إلى الصغار: كنوز أدبية!

قرأت خطابًا رفيعًا لأستاذنا طه حسين نشرته إحدى الصحف العربية. الخطاب من طه حسين إلى أديب شاب، ولغته في غاية الرقة واللطف والأبوة.

وقد أمتعنا طه حسين بلطفه وأبوته وأستاذيته. لقد كنت تلميذًا لطه حسين وكنت معجبًا بالأستاذ عباس العقاد، وأشهد أن عظمة العقاد قد أخفت عنا عظمة طه حسين، فجاءت معرفتي الحميمة لطه حسين متأخرة – مع الأسف.. لقد كنا نلجأ إلى طه حسين، عندما نضيق بالأستاذ العقاد، فقد كان العقاد جافًا خشنًا، فليس له أولاد ولا يعرف معنى الأبوة، ولا كان أستاذًا جامعيًا، يعرف معنى التلمذة عليه وحوله. وكان العقاد يقول: يا مولانا أنت لا تعرف كذا وكذا.

أما طه حسين فيقول: يا سيدي كما تعرف هذه مسألة صعبة، ولكنك تستطيع.

وكان العقاد يقول: إن هناك أساتذة في الجامعة يرون أنهم إذا ذهبوا إلى السوربون أو أكسفورد فهم أكثر علمًا من الذين لم يذهبوا إلى الجامعة، لو صح هذا لكان حذائي أكثر فهمًا للفلسفة والأدب بحكم معاشرته لي.

وكان طه حسين يقول: إن الأساتذة إذا ذهبوا إلى السوربون أو أكسفورد فقد انتقلوا من مجرد الألفة إلى الحب والعشق، فما أكثر النماذج الجميلة وأروع القدوة وأغزر المعرفة، إن أحدًا لم يولد في الجامعة وإنما هي الحضانة الرقيقة والدفء النبيل.

وأذكر أن زميلاً صحافيًا في أول حياته العملية أرسل خطابًا للدكتور السنهوري باشا فقيه الفقهاء في الدستور يسأله بماذا ينصحه في حياته الدراسية والعملية، ولم يتوقع هذا الزميل الشاب الصغير أن يتلقى ردًا من السنهوري باشا، وأيامها كان وزيرًا للمعارف.

أما خطاب السنهوري فكان تحفة في الأدب الرفيع، وأبوة غامرة وتواضعًا جميلاً، فأخذت هذا الخطاب إلى الأستاذ إحسان عبد القدوس رئيس تحرير (روز اليوسف) ونشر الخطاب البديع، ولا أزال أذكر الاستهلال الذي بدأ به السنهوري باشا خطابه. لقد كان بيتًا من الشعر عن الاستقامة يقول البيت:

(ألف) الكتابة، وهو بعض حروفها   لما استقام على الحروف تقدما

أي أن حرف الألف تقدم كل الحروف لاستقامته، وبقية الخطاب من هذا الطراز البليغ نثرًا وشعرًا.

وأذكر خطابًا تلقاه أحد الزملاء من توفيق الحكيم، يقول توفيق الحكيم ما معناه: إن كان من رأيك أنني أستاذ لك أو لغيرك فلا أنصحك أن ترتدي ملابسي، ويجب أن تكون مختلفًا وألا تستعير عيني لكي ترى، وأذني لكي تسمع، وعصاي لكي تتوكأ عليها.. فلم يكونوا عظماء من فراغ!

البحث عن قهوة سادة في كوبا

كنت عضوًا في الوفد المصري لدول عدم الانحياز، وموعدنا في هافانا عاصمة كوبا والمؤتمر اسمه (مؤتمر القارات الثلاث)، أي إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وكوبا بلاد جميلة، الطبيعة بديعة، كل شيء أخضر وبغزارة، والصحف تعلن كل يوم عن أهل الولاية الفلانية قد تبرعوا بالأرز لنا، أو باللحوم والأسماك، أي أننا نأكل طعامهم وشرابهم وهم سعداء بهذه التضحية، ولكن الفقر الشيوعي واضح، وفي المحلات التجارية تجد الفتيات قد علقن الأقراط والأساور والعقود، وكلها عهدة، أي لا يملكنها، وإنما يعرضنها. وقد تعلق سعر هذه المجوهرات مكتوبًا على ورقة صغيرة، وقد نصحوني بشراء أحجار الجاد وهي كثيرة وجميلة ورخيصة واشتريت وفقدتها، فقد سرقها لا أعرف من.

وكانت هناك فتيات مترجمات ملحقات بالوفد وكن جميلات منكسرات، وكل الفتيات يطلبن منا أن نجمع لهن طعامنا من الخبز والزبد والأرز واللحم ليعدن به إلى بيوتهن، وكنا نفعل، ولم يجدن ضيقًا أو حرجًا، فهي دول شيوعية تعاني ما تعانيه كل الدول الشيوعية بما فيها روسيا والصين وألمانيا ويوغسلافيا وكل الدول وراء الستار الحديدي. إنها شعوب عندها أمل، فعصرها الذهبي

أمامها وليس وراءها، وكل شيء له ثمن وأحلامها لها ثمن، والثمن طعامها ولباسها وشرابها وراحتها وحريتها.

وهذه الشعوب قد أدمنت المستقبل، فكل شيء من أجل المستقبل والمستقبل يزداد بعدًا واستحالة.

وفي كوبا طبيعة غنية: قصب السكر وأشجار البن والتبغ، فهم يعيشون على القهوة والدخان، الفناجين الكبيرة والسيجار الطويل، وكان الرئيس كاسترو إذا علم أن أحدًا لايدخن اندهش، وقد وقعت في هذا المطب، فنادى كاسترو من يأتي لي بسيجار تشرشل وكوب من القهوة، وقال لي: جرب.. اعمل مثلي.

أما الذي فعله هو فقد غمس السيجار في فنجان القهوة وقضم الجانب المبلل وبصقه على الأرض وأشعل السيجار، وراح يتنفس ويشرب القهوة، أما السعال الذي يجيء بعد كل شفطة فمحتمل، إلا أن القهوة لها طعم العسل، وسألت وعرفت أنهم يضعون السكر والبن في طاحون واحد، ولا يعرفون القهوة السادة، وحاولنا أن نجد البن وحده والسكر وحده فلم نفلح فالسكر والبن كالزواج الكاثوليكي لا انفصال ولا انفصام وشكونا، وكان لا بد أن أذهب إلى سفارتنا لكي نشرب القهوة التركية بلا سكر ولا سيجار.

ولما علم الرئيس كاسترو غضب ورأى في ذلك إهانة له ولبلاده المضيافة وقاطعنا، فلا سلام ولا كلام حتى غادرنا كوبا إلى موسكو، وظننا أنه يداعبنا ويتظاهر بذلك، ولكن تأكدنا أنه جاد، غريبة؟ نعم!

عفواً أيتها الشياطين والخونة!

سنة 1963 ذهبت إلى روما لأحضر جلسات «المؤتمر المسكوني» في الفاتيكان، وكلمة المسكوني نسبة إلى المسكونة أي الكرة الأرضية. أي المؤتمر العالمي. ومن أهم القضايا التي عرضها الكاثوليك وثيقة تقدم بها الكاردينال (بيا) يطلب فيها تبرئة اليهود من دم السيد المسيح. فإذا كان في ذلك الزمان قد تسببوا في صلب المسيح فما ذنب هذا الزمان؟ وتبرئة اليهود معناها عدم لعنهم في الصلوات. ودافع البابا يوحنا الثالث والعشرون عن وجهة نظر الكاردينال (بيا). ووافق المؤتمر على براءة اليهود.

ثم ألف الشاعر الإيطالي جيوفاني بابيني عن إبليس في مسرحية عنوانها «غواية الشيطان» وفي هذه المسرحية يطلب من الله أن يعفو عن إبليس فما هو إلا أحد المخلوقات الضعيفة التي ركبها الغرور فارتكبت الكثير من الشرور. وقال بابيني: إن رحمة الله واسعة ولايمكن أن تضيق عن خطيئة الشيطان.

وقد ترجمت أنا هذه المسرحية من الإيطالية إلى العربية. وبعدها بفترة قصيرة اقتبسها بشدة السيد فتحي رضوان وزير الثقافة في مصر. فكتب مسرحية اسمها «دموع إبليس» وانتقدته وهاجمته بعنف

في سلسلة مقالات بعنوان «دموع الوزير» وظهرت على المسرح رغم ذلك! وحاول السيد فتحي رضوان أن يقنعنى أنَّ الذي حدث هو مجرد توارد خواطر، والحقيقة أنها ليست كذلك. بل لقد نقل خواطر وسطورًا كاملة ومواقف وكان من الممكن العفو عن الشيطان ولكن لا عفو عن الكاتب المصري الذي سرق ونهب المؤلف الإيطالي دون إشارة أو اعتذار أو امتنان – ولو كان المؤلف الإيطالي حيًّا لسحب إبليس وألقى بالوزير في جهنم!

والآن يحاول الفاتيكان أن يصدر عفوًا عن يهوذا (الإسخربوطى) الذي طلب منه الرومان– مقابل مبلغ تافه– أن يدلهم على السيد المسيح لأنهم لا يعرفونه.. ففي ذلك الوقت لا صور ولا صحف.

فقال لهم إن الذي سوف يقبله هو المسيح. وعانق السيد المسيح وقبله – إنها (قبلة يهوذا) المشهورة – قبلة الخائن الأجير الرخيص الحقير.

ولماذا العفو عنه؟ لأن يهوذا لم يكن خائنًا. وإنما هي إرادة السماء أن تفعل ذلك لكي يتعذب السيد المسيح من أجل خلاص البشرية.. فيهوذا لم يكن إلا أداة في يد القدر – لا حيلة له ولا ذنب.. ولذلك يجب العفو عنه. وإذا شمل العفو إبليس ويهوذا – انفتحت أبواب جهنم ليدخل كل الناس جنات تجري من تحتها الأنهار!

ومن العجيب.. أننا نطالب بالعفو عن الشيطان وليس عن الإنسان!

حتى أعرف اللغة اليابانية!

الذي لم ير الجيشا فقد قرأ عنها أو سمع. أو تمنى. وفي الصحف الآن كلام كثير عن الجيشا على أثر ظهور فيلم أمريكي عن حياتها. وأنا رأيت بنات الجيشا في مهدها في مدينة كيوتو العاصمة القديمة لليابان الحديثة. ذهبت. وجلست على حصير ناعم. والجلسة غير مريحة. فليس من عاداتنا أن نفعل ذلك إلا عند الصلاة، ثم إن هذه الجلسة تحتاج إلى مرونة في الساقين وإلى نحافة الخصر. أما الجلسة الصعبة فهي جلسة بنات الجيشا على ركبهن، المكان هادئ نظيف. الهواء يدخل بإذن ويخرج بالأمر وكل شيء يقف بالباب. حتى الهمس بعيد، حتى هي إذا تكلمت فعلى الرغم من قربها فصوتها يجيء من بعيد.. كأنها راديو يلتقط الأصوات من خارج المكان. أما صوتها فنحيف أو أكثر من ذلك. طه حسين يقول عن مثل هذا الصوت: إنه أبيض نحيل..

أما البياض فقد وضعت على وجهها كثيفة من شيء أبيض، ولا أعرف لماذا؟ لا بد أنها أرادت أن تخفي لونها الأصفر الآسيوي. أما شعرها الأسود الفاحم الطويل فقد شدته إلى الخلف بصورة لا أعرف كيف أصفها. وأما فستانها أو الكيمونو الضيق جدًا والذي يجعل

حركتها صعبة وخطواتها قصيرة، ويخفي الاعوجاج في ساقيها. وساقاها معوجتان. لأن الطفل تحمله الأم فوق ظهرها وقد انفرجت ساقاه والتفتا حول خصر الأم سنوات.. فاعوجتا. فجاء الكيمونو الضيق يخفي هذا العيب.

ولكن بعد الاحتلال الأمريكي واشتغال المرأة الأم، فلم يعد طفلها حول خصرها واستقامت السيقان، وتعلمت بنات اليابان ارتداء الفساتين القصيرة لكي يكشفن عن جمال الساقين، كما أجرين عمليات جراحية لكي يختفي انحراف العين أيضا.. وقد أدى تناول اللحوم إلى إطالة قامة البنات والبنين وتحول اللون من الأصفر إلى الأبيض.. وفي اليابان كثيرات وكثيرون لونهم أبيض وأحمر كأي أوروبي!

جلست وشربت الشاي الأخضر ولم أفهم.. ولا حاولت أن أفهم. ماذا تقول الجيشا. إنها قد وضعت كتكوتا في حلقها. والكتكوت في حاجة إلى دجاجة لكي تفهم ماذا تعني هذه الصوصوة. وكما جاءت ذهبت. وانتهى العرض.. ولا رأيت أحضانًا ولا قبلات ولا غمزًا ولا تلميحًا. ولما شكوت قيل: لأنك لا تعرف اليابانية. وسألت الذين يعرفون اليابانية. فكان سؤالي باعثًا على الضحك.

ولكني لا رأيت ولا سمعت ولا لمست، والسبب أنني ما حاولت. ولكي أحاول لابد من أن أعرف اليابانية.. فهل هي تساوي كل هذا العناء؟ لا تساوي!

قالوا لي: ما فات مات!

كنا مع الرئيس حسني مبارك في زيارة إحدى الدول الإفريقية، وفجأة انتشر الهمس والتلميحات، والحركات السريعة والتواصي بالكتمان، ماذا جرى؟ قالوا: إن إرهابيين من إحدى الدول العربية في طريقهم إلينا، لماذا؟ لا وقت للسؤال وللإجابة، المهم أن نجمع حاجاتنا وأن نهبط في الظلام، السلالم مظلمة والأسانسير، وبدلا من أن نتجه إلى الباب الخارجي للفندق يجب أن نتجه إلى السيارات وإلى المطار. السيارات مظلمة، ونحن أيضًا قطع من الليل، سحب سوداء تزحف على الأرض، ولا كلمة، ولا داعي للكلام الآن، وفي الطائرة فسوف يكون لدينا متسع من الوقت.

وانتقلنا من ظلام إلى ظلام، طائرة الرئيس، أما حاجاتنا فتنقلها عادة طائرة حربية، وهي تسبقنا لكي يضعوا الحقائب في غرفنا.

وبدلاً من أن تتجه الطائرة في مواجهة الريح، كما هي القاعدة، اتجهت بعيدًا جدًا ثم دارت محركاتها واتخذت طريقها عكسيًا، وكانت الطائرة مظلمة أيضًا، وجلسنا في صمت..

لقد خفنا أن تضيء كلماتنا، فأطبقنا شفاهنا حتى لا يكون الكلام أو الخوف كاشفًا فاضحًا. فقط عندما استقرت الطائرة فوق وانفتحت الأضواء رأينا بعضنا البعض، وعلى الوجوه استفهام ودهشة، وانتظرنا ما سوف يقال لنا عما حدث أو ماذا كان من الضروري أن يحدث ولماذا، ومن أين جاءت هذه المعلومات؟

وتوقفت الطائرة في مطار الخرطوم، واتجهنا إلى المطعم وكان الإفطار هو الطعام الذي أعدوه للغداء: لحوم وأسماك ومايونيز، وإن كان بعضنا يقول إنهم في السودان يأكلون اللحم صباحًا، فالذي يهم ماذا حدث أو ما الذي سيحدث؟ قيل لنا: المعلومات جاءتنا من الخرطوم وأن المتظاهرين أو الإرهابيين قد جاءوا من ليبيا، ولكن لماذا؟

ولما وصلت في تسجيل مذكراتي عند هذه النقطة توقفت وسألت بالأمس، فقيل لي: ياه إنت لسه ناكر؟ قلت: نعم، فقيل لي: يا شيخ اللي فات مات!

لا فات ولا مات ولا بد أن أعرف.

فقيل: ربنا يعطيك العمر كمان عشرين سنة.

فهرس